رقصة ميلاد

رقصة ميلاد

قصص

أحمد مسعد

تصميم الغلاف: أحمد فرج

تدقيق لغوي : محمود السيد

رقم الإيداع: 2014/25974

I.S.B.N: 978-977-488-334-7

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة: 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة.

المدير العام: يحيى هاشم

هاتف: 01110622103 - 01147633268

E- mail: daroktob1@yahoo.com

Facebook: دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية، 2016م

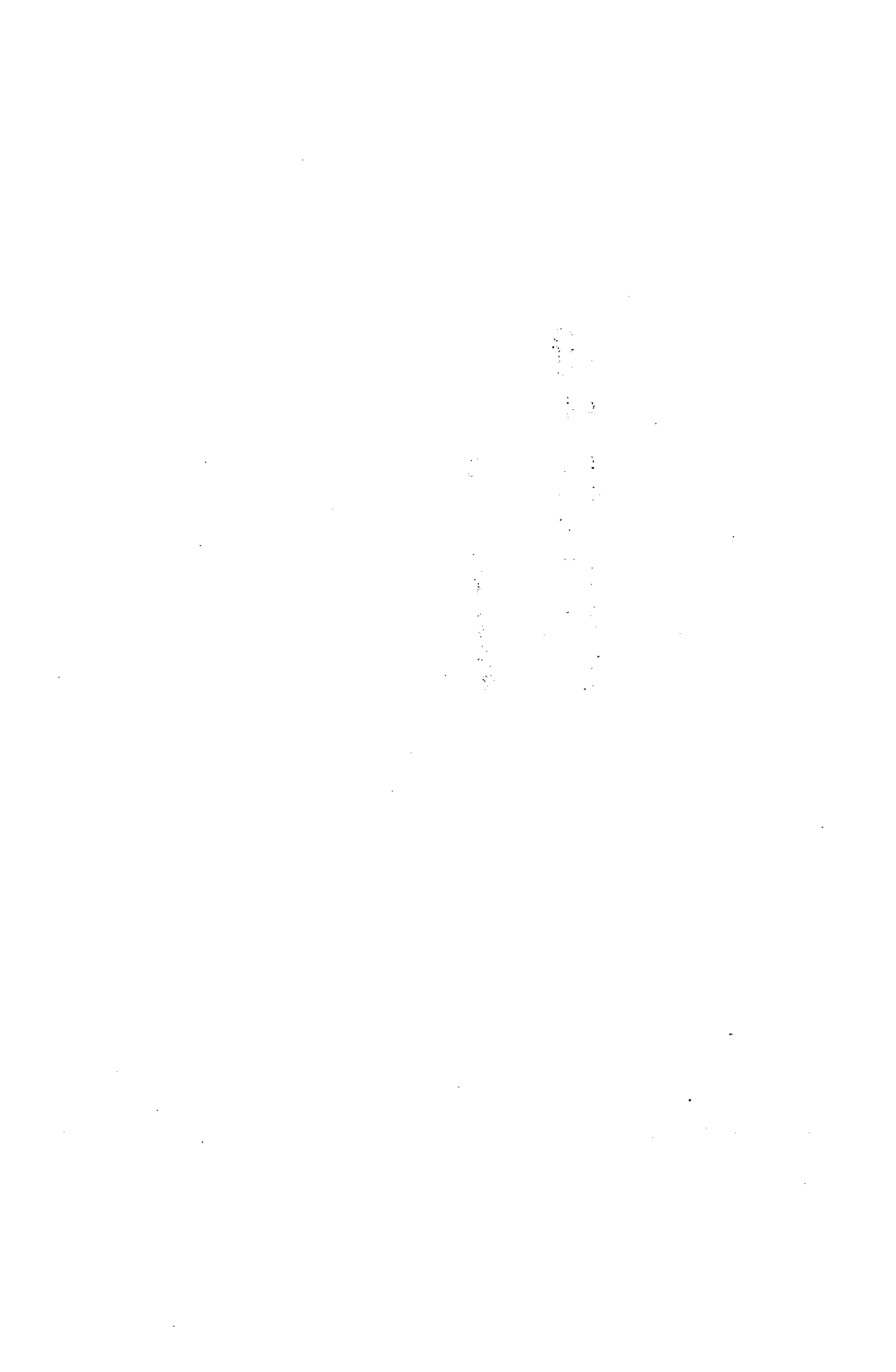
رقصة ميلاد

أحمد مسعد

قصص



دار اكتب للنشر والتوزيع



لذكرى أيام كانت وكنا فيها .....

لذكرى شخوص كانت وكنت معهم ....

لأيام وشخوص ستكون، وربما كنت أيضًا!

أحمد



مرغم عليك يا صبح، مغصوب يا ليل

لا دخلتها برجليا، ولا كان لي ميل

شايلنّي شيل دخلت أنا في الحياة

وبكره ح اخرج منها شايلنّي شيل

عجبي!!



دُمية

دقات بندول الساعة الخشبية الكبيرة التي تحتل وسط الصالة، تصله في الدور العلوي حيث يجلس وحيدًا، تخبره أنه تأخّرَ كثيرًا عن موعد نومه المعتاد. يواجه دُمَاهُ الخشبية الصغيرة منذ ساعات يبحث في وجوهها التي أمضى الليالي الطويلة في صناعتها - عن حلٍّ يخرجه مما هو فيه.

الملل الذي رآه مرتسمًا على وجوه الحضور وفي تصرفاتهم صغيرًا قبل الكبير يقلقه، يثبت أن شكوكه التي راودته سابقًا حين قلّ عدد الجمهور تدريجيًّا كانت في محلها. ذهنه خالٍ من أي أفكار جديدة أو حلول.

***

لمساتٌ حانية لأناملٍ رقيقة على كتفه اليمنى جعلته يدرك أنه أمضى ليلته الماضية جالسًا على كرسي، ساندًا رأسه على المنضدة التي

تتوسط الغرفة التي يستخدمها كمصنعٍ ومخزن لدُمَاه الخشبية. ابتسم لصاحبة الأنامل الرقيقة وهو يتمتم ببعض الجمل؛ ليفسر نومَه الغريب هنا. كانت تلك هي حفيدته، يتيمة الأبوين وتعيش معه هنا منذ أن كانت في الخامسة. الآن .. هي تسبق عامها الثاني عشر بأيام قليلة.

طفلة على مشارف الأنوثة، شعرها القصير الذهبي ينسدل برقة ونعومة على رقبتها البيضاء وكتفيها، تهرب منه بعض الخصلات لتستقر بجوار عينيها العسليتين. ملامح وجهها الدافئة تجبرك على الشعور نحوها بالأُلفة منذ النظرة الأولي.

رَبَتَتْ على كتفه بأناملها الرقيقة ... الابتسامة التي لا تفارق عينيها انتقلت إلى وجهها وهي تخبره أنها أعدّت له طعام الإفطار بيديها هذا الصباح، وانتقلت لترتسم باستحياءٍ على وجهه.

حينما جذبته من يديه نحو غرفة الطعام في الدور السفلي قبل حتى أن يبدأ في سلسلة الاعتذارات التي كان على وشك أن يقولها، رغم أنه اعترف لها بعد أول لقيمات تناولها أنّ الطعام بالفعل جيد، وأنه كان يحتاج إلى تلك الوجبة ليبدأ يومًا طويلًا، إلا أن شروده دَفَعَها إلى أن تدفعه للذهاب إلى حجرته ومحاولة الحصول على بعض الراحة التي يحتاجها جسده وذهنه المرهقانِ.

وبعد أن اطمأنت أنه بدأ حديثه مع الملائكة ذهبت إلى حجرتها لتشبع رغبة تتملكها منذ الأمس بالرسم دون أن يكون لديها شيءٌ محدد ترسمه..

***

أحضرت فرشاتها والألوان ولوحة بيضاء متوسطة الحجم، وبنصف ذهنها تركت يديها ترسم ما تشاء، وبنصف الذهن الباقي أخذت تطارد تلك الأفكار التي تحتلها منذ الليلة السابقة ما بين جَدِّها وعَرْضِهِ الراقص الذي يوشك على الانهيار، وذاك الحلم الراقص الذي يراودها يوميًا منذ أكثر من أسبوع.

مرّ الوقت دون أن تتمكن من التقاط أيٍّ من تلك الأفكار. يداها لم تتوقف عن العمل طوال تلك المدة ... الصورة اكتملت، أخذت تتأملها بدهشة. لقد رسمت ذاك الفارس الذي يراقصها كل ليلة .. بوجهه الأبيضِ المُشْرَبِ بالحمرة التي تتجلى ظاهرة في وجنتيه، وملامحه الدقيقة المتناسقة.

لا تدري إن كانت قد غفلت وهي جالسة ممسكة بفرشاتها أم أنها شردت بعيدًا، ولكنها لم تتمالك نفسها حين أَفَاقَتْ مما كانت فيه، انطلقت تجري نحو غرفة جدها النائم وهي تنادى عليه بصوت مرتفع.

الجد على سريره بين اليقظة والوَسَن ... أحضرت له كوبًا من القهوة المغلية الساخنة. الجد يرتشف القهوة ببطءٍ بينما هي تتحرك في

الحجرة يمينًا ويسارا تتحدث بسرعة، تتراقص ببهجة مع آخر رشفات جدها للقهوة اعتدلَ في جلسته، وطلب منها أن تعيد حديثها السابق مرة أخرى ولكن ببطء. ارتسمت على وجهها ابتسامة جزلة رقيقة قبل أن تجلس على طرف السرير ممسكةً بلوحتها، وتبدأ في الحديث من جديد بهدوء ...

***

لم يشعر أيٌّ منهما بمرور الوقت .. انهمكا في صُنع الدمية الجديدة التي رسمتها الصغيرة. مع دقات بندول الساعة الخشبية الكبيرة في الصالة معلنةً انتهاء اليوم الثالث كان الجد قد انتهى من وضع لمساته الأخيرة على الدمية الجديدة.

برفقٍ شديد أيقظَ الصغيرة التي انهارت على الكرسي منذ ساعات نائمة من شدة الإرهاق. اللمعة النادرة التي رأتها في عينيْ جدها رسمت ابتسامةً صغيرة على شفتيها. أخذت تتأمل الدمية المصنوعة تمامًا كما رأتها في حلم يقظتها، أمسكتها من ذراعيها وأخذت تدور وتدور بها في الحجرة فرحًا.

نظرت إلى جدها نظرةَ رضا وابتسمت ... وقبل أن تستجيب إلى طلب جدها بالحصول على قسط كبير من الراحة، ألقت نظرةً على الدمية ... توقفت قليلًا. وزمّت شفتيها وهي تفكر قليلًا .. طبعت قبلةً علي وجنتي الدمية مانحةً إياها بعضًا من الحمرة. نظرت إليها

برضا، وتركتها بالقرب من بقية الدُّمى، تأملتها مرة أخرى قبل أن تُحكِم إغلاق باب الغرفة المظلمة ....

***

صوتُ حركات خافتة يقطع صمت ظلام الغرفة، لحظاتُ صمتٍ جديدة، إضاءةٌ تكفي لكشف محتويات الغرفة تنبثق من مكان غير ظاهر، منضدةٌ خشبية في المنتصف يرقد فوقها بقايا خشب وأقمشة ملونة بجانبها شاكوش كبير وبعض المسامير المتناثرة دون ترتيب فوق أوراق رسم. في ركن الغرفة تتراصُّ دُمًى خشبية، وجهها شاحب، ملابسها كالحة الألوان، فقدت مع العمر بريقها. تقف بتحدٍّ في مقابل دمية وحيدة، ملابسها الزاهية الألوان تلمع في الضوء الخافت، وجنتها البيضاء ما زالت تصطبغ بحمرة شفاه الفتاة الصغيرة التي طبعت عليها منذ ساعات قليلة قبلةَ الميلاد الأولى.

مع أولى ساعات الصباح كان صوت خطوات أقدامها على السلم الخشبي العتيق يقطع سكون الصمت، رغبتها في رؤية الدمية الجديدة جعلتها تهمل ملاحظة اختلاف ترتيب الدُّمى القديمة. أمسكت بيديها وليدها الجديد – دميتها –، وأخذت تدور بها في المكان محاولةً تقليد حلم ليلة أمس. خطواتها المتعثرة في الخيوط أوقعتها على الأرضية الخشبية فأصدرت صوتًا أيقظَ جدَّها الذي ينام في غرفته تحت الورشة مباشرة. بعد الإفطار جَلَسَا معًا يكملانِ تنفيذ باقي أجزاء الحلم.

الفكرة كلها في تصميم استعراض تشارك فيه الصغيرةُ تلك الدميةَ الجديدة في الرقص، فقط ثلاثة أسابيع على الخميس الأخير من الشهر موعد العرض.

استقر تفكير الجد على أن يبدأ بتعليم الصغيرة الخطوات الأساسية أولًا وحدها، وحين تتقنها يبدأ مرحلة الرقص المزدوج بينها وبين الدمية التي سيقوم هو بتحريكها. خطوة لليمين...خطوتان لليسار.... نصف دورة، خطوات متناغمة مع إيقاع الموسيقا الصادر من جهاز البيانو الخشبي الكبير .... خطوة لليمين ... خطوتان لليسار ... نصف دورة. الليالي مرت حتى نهاية اليوم العشرين، والعمل ما زال دائرًا في الغرفة العلوية دون كللٍ أو ملل.

قبل الفجر بقليل توقف الصوت الصادر من البيانو وانقطعت أصوات الأقدام من على الأرضية الخشبية، وأطبق على المكان بعضُ الصمت مختلطًا بصوت أنفاس الجد الملقى تعبًا على كرسيه بجوار البيانو، وصوتِ أنفاس الفتاة المتروية في ركن الغرفة محتضنة دميتها الصغيرة. بعض الحفيف الصادر من حركة أقدام الدمى القديمة متحركة في الركن الخلفي المهمل للغرفة، همسات غير مفسرة تحمل الكثير من معاني الغضب.

***

مع أول أشعة الشمس المشرقة في يوم العرض بدأت الحياة تدب في الغرفة سريعًا. الجد منهمك في وضع اللمسات الأخيرة على عرضه المرتقب، يراقب بعناية عملية نقل البيانو القديم إلى العربة الكبيرة التي اتفق مع صاحبها على نقلهم إلى البلدة الصغيرة. وهي تُلبِس دميتها الثوب الذي أمضت في صنعه الليلتين الماضيتين، وحينما انتهت أخذها معها إلى غرفتها وبدأت ترتدي ثوبها الذي أنفقَ جدها أكثر من نصف مدخرات العرض السابق عليه.

قبل العصر كان كل شيء قد انتهى كما خططَ له الجد، لم يكن هناك أكثر من نقل الدُّمى القديمة إلى مؤخرة العربة لاستخدامها كديكورات في العرض. ترك الجد تلك العملية للعمال، واتجه مع صغيرته ودميتها نحو البلدة لوضع آخر لمسات اللحن مع رفيقه عازف الموسيقا.

في المساء كان كل شيء في موضعه تمامًا، الدمى مثبتة في السقف وموضوعة دون حركة في أماكنها كما رسمتها لها الصغيرة، الجد في الطابق العلوي مع خيوط الدمية الجديدة، خلف الستار تقف الفتاة بجوار دميتها .. ثلاث دقائق قبل رفع الستار ... دقيقتان ... دقيقة واحدة ... قبلة حانية من شفتيها تعيد الدماء إلى وجنة الدمية من جديد مع همسات بالحظ السعيد. وانسابت الموسيقا .. تتابع حركاتهما معًا، والجد يحرك الخيوط التي تربط الدمية مع خطوات

قدميها بانسيابية شديدة. لوهلةٍ فَقَدَتِ التميز وظنت أنها تراقص شابًّا من لحم ودم. لم يكن هذا إحساسها وحدها، انتقل الإحساس إلى جميع مَن في القاعة من حضور. ذاك الإحساس الذي سيجعلك تنسى وأنت تشاهد أنها مجرد دمية تراقصها فتاة صغيرة، ستظن أنك ترى استعراضًا راقصًا حيًّا لصغيرين، بل ستتخطى ذلك وتسمع في أذنيك صوت أنفاسها المتعبة، وترى بعينيك لمعة قطرات العرق المنسابة على جبينها الأبيض، وتنتقل إليك حرارة دمائها الساخنة التي تتدفق إلى وجنتيها المصبوغتين بالأحمر من انفعال الحركات.

ساعة مرت على الجميع كأنها ثوانٍ قليلة ... مع توقف نغمات الموسيقا توقفت الحركات الراقصة، وتوقفت أنفاس الجميع، وأخذت الجميع لحظاتُ نشوة صامتة قطعها صوتُ تصفيق حاد استمر لبعض الوقت.

نشوة النجاح أخذت الجد والصغيرة، ولم يلحظ أيٌّ منهما اللون الأحمر الذي احتلّ مكان بياض لون عيون الدمى القديمة!

***

في المترل كان على الجدِّ النوم جيدًا لتعويض إرهاق ليالي العمل المتوالية في عرضه الذي جعله مطلوبًا أكثر .. تمنّى لصغيرته ليلة نوم هانئة، واتجه إلى غرفته.

في الحجرة العلوية أمضت الصغيرة بعض الوقت مع دميتها الجديدة. كانت ترغب في أن تصحبها معها إلى غرفة نومها، ولكن جدها رفض الاقتراح. أخذت تتأملها وهي تفكر في الإحساس الذي انتابها وقت الرقص .. طوال العشرين يومًا في التدريب لم تشعر بمثله. ظلت تتأملها حتى احتلّ التعب جميع خلاياها، وارتسم الوَسَنُ على جفونها فهبطت إلى غرفتها لتنام.

الصمت المطبق يحتل جميع غرف المنزل إلا الغرفة العلوية، حركات الدمى القديمة تتوالى نحو الركن الذي ترقد فيه الدمية الجديدة، أصوات غير مفهومة تلاها صمتٌ تام!

الصغيرة في غرفتها تهب مفزوعة من نومها .. خطوات سريعة على السلم الخشبي القديم، ارتطامٌ بالباب نصف المغلق، لحظة صمت، صوت صرخات متتالية ونشيج باكٍ أيقظَ الجدَّ من نومه ودفعه إلى الصعود إلى الغرفة العلوية.

المشهد كالتالي ... الدمية الجديدة ترقد ممزقةَ الأوصال، ولا شيء آخر مختلف عمّا تركته الصغيرة منذ قليل. الجد لا يجد ما يفعله ليخرج من الذهول الذي انتابه، ودموع الصغيرة المنهمرة لا تتوقف.

ساعة مرت عليهما .... تهاوى الجد على الكرسي الكبير في طرف الغرفة. الصغيرة أخذت بقايا دميتها وهبطت درجات السلم

الخشبي بصعوبة نحو غرفتها، أخذته بين ذراعيها ورقدت على السرير الصغير.

دموعها تنساب على أجزاء الدمية بين ذراعيها رغم أن عينيها مغلقة في ما يشبه النعاس. لقد أدركت الآن أن ما شعرت به وهي تراقصه في الليلة السابقة كان مشاعر حب صافية دون أي تبرير.

انتظاره لمعرفتها حقيقة بشريته الوليدة على قطرات دموعها – لن تجعل قلبها الرقيق يدرك أنه منذ أن منحته شفتاها سرَّ الميلاد .. يحبها.

قبل شروق الشمس بقليل ... طبع على وجنتيها قبلة حانية. لم ينسَ أن دموع حزنها الصافية هي التي وهبته الحياة، مسح دموعه المتساقطة وألقى عليها نظرته الأخيرة قبل الرحيل!

رحيل

لم تكن الشمس التي أشرقت في هذا اليوم مثل التي اعتادت أن تراها الجدة طوال أيام حياتها السابقة. هي دومًا تستيقظ مع أذان الفجر، ساعة جسدها البيولوجية مضبوطة على ذلك منذ سنين طويلة، تُصلّي وتبدأ في أعباء يومها المعتادة، ولكنها لم تُهمل أبدًا النظر إلى الشمس الشارقة في أول إطلالاتها على الكون. كانت تستمد منها قوةً تعينها على الاستمرار.

اليوم استيقظت كعادتها مع الفجر، انتهت من صلاة ركعتي الفرض وركعتي السنة، وتبعتهما بركعتين ابتهالًا وتضرعًا لله ليعينهم على ما سيُقدمون عليه اليوم. وحينما رفعت نظرها لتراقب قرص الشمس الوليد شعرت بوخزة في قلبها؛ لم تكن هي كما اعتادتها. لم تمنحها القوة التي كانت تحتاج إلى أضعافها اليوم وبشدة، ربما كان الوهن فيها هي وليس في الشمس اليوم، ولكن عقلها المشتت لم يُمكّنها من إدراك تلك الحقيقة في حينها.

أخذت تُلهِي نفسها بتحضير طعام الإفطار للجميع لتمنع نفسها من التفكير في أمر اليوم، وفي أي شيء آخر. لم يكن لديها عمل كثير، أنهت في الليلتين السابقتين تجهيزَ أكوام الأثاث الذي سيُنقل معهم، ووضعَ الأشياء الأخرى في الصناديق الكبيرة، وتجميعَ الملابس في الحقائب، والمتبقي ستنتهي منه قبل أن ينتهي الرجال من تناول الإفطار ليقوموا بتحميل العربة الخشبية التي ستنقلهم إلى محطة القطار.

أيقظت الجميع .... لم يستغرق منها هذا الأمر طويلًا عكس ما اعتادت عليه، يبدو أن أحدًا لم ينعم بنوم هانئ في الليلة السابقة مثلها. التفوا حول الأطباق الموضوعة على الورق المفروش على الأرض وتناولوا إفطارًا بسيطًا في لقيمات صامتة لم تستغرق وقتا طويلًا. بدأ الرجال بعدها في نقل الأثاث المكوم في طرف الباحة، أخذت النساء تعتني بتحضير أشيائهم الباقية وتجهيز الأطفال.. كل شيء يتم في حركات ميكانيكية تخلو من أي روح.

أخذت الجدة تراقب ما يحدث وهي تجلس على صندزق في طرف الباحة الأخر، لم تكن ترى بعينيها شيئًا مما يحدث، المشهد كان مختلفًا تمامًا أمام عينيها.. رجالٌ تأتي وتذهب حاملةً قطعًا مختلفة من الأثاث الجديد، والأطفال تجري فرحةً تلعب يمينًا ويسارًا بين أقدام الرجال المتحركة في إيقاع متناغم والنسوة الجالسة في فرح غامر. لم تكن ترى تلك الوجوهَ البائسةَ التي تحمل الأثاث المستعمل في تثاقل شديد، ولا

براءةَ الأطفال المغتالةَ في عيونهم المطفأة، ولا نظراتِ النسوة المتحسرةَ على كل ما كان.

قبل أذان الظهر بما يقرب من النصف ساعة بينما الشمس عمودية على سطح الأرض، أخذ الجميع أماكنهم في أعلى سطح العربة الخشبية التي تحركت بهم نحو محطة القطار في طرف البلدة الآخر. الطريق من دارهم إلى محطة القطار يقطع البلدة كلها، مَرُّوا وسط بقايا ديار مهجورة، الجميع رحل من البلدة وهم آخرهم. الصمت يحتل شفاههم جميعًا متناغمًا مع صمت هواء القرية الميتة.

المشهد في عيني الجدة ما يزال مختلفًا .. عند شجرة الكافور الكبيرة التقته أول مرة، وعندها كانا يتقابلانِ قبل المغرب، وعندها أيضًا أتت هاربةً من شبح الموت الذي أحاط بقلبها حين وصلها خبر وفاته في الحرب على الجبهة الأخرى. هنا منزل خالتها، وهنا منزل صديقتها ورفيقة عمرها، وهنا ...، وهنا ...، وهنا .....

سائق القطار يطلق نفير الإنذار بالرحيل. تقف الجدة على باب القطار تنظر بعيدًا نحو القرية، ابنها الأكبر يصعد وهو يطلب منها الجلوس معهم بعد أن انتهى لتوِّه من وضع آخر أحمالهم، وهي ما زالت تنظر إلى القرية شاردةً دون أن تميز أيًّا من كلماته إليها.

نفير الإنذار الأخير للرحيل. عجلات القطار بدأت في السير ببطء على القضبان، قفزت من مكانها وأخذت تجري نحو باب محطة

القطار، يلحقها ولداها ويمسكانِ بها قبل أن تخرج من البوابة ويعيداها بصعوبة إلى عربة القطار قبل أن تزداد سرعة عجلاته ويغادر تاركهم خلفه.

– بدي أقفل باب الدار، نسيته مفتوح .. تتكرر الكلمات على شفتيها.

الدموع المنسابة من عينيها الواهنة على وجنتيها، صوت نشيجها المختلط بصوت عجلات القطار العالي – منع الجميع من سماع كلماتها التي لم تتوقف عن النطق بها، بينما نظرات عينيها معلقة نحو دارها في الغرب.

---

* من وحي حديث سمعته على مقهى بالتحرير

رقصة ميلاد

قبل الفجر بقليلٍ كانت قد استنفدت كل محاولاتها للتغلب على شعور القلق الذي تمكّن من احتلال فراغات وجدانها بسهولة. لا تدري ما الذي أَخّرَ وصوله حتى الآن .. القطار الذي سيستقله قادمًا من العاصمة إلى أقرب مدينة لهم يجب أن يكون وصل منذ أكثر من خمس ساعات، والطريق إلى ديارهم رغم صعوبته يأخذ في أسوأ الحالات ثلاث ساعات على الأكثر، إذًا فقد تأخّرَ ما يقرب من ساعتين عن موعد وصوله الذي أكّده في آخر خطابٍ وصلها منه الشهر الماضي. هو لا يحب السفر بأي شيء آخر غير القطار، وكما أخبرته أكثر من مرة أنه شخص لا يُغير عاداته أبدًا وتحت أيِّ ظروف. لا يمكن أن يكون أجّل السفر، فخطاب الجدة الأم له كان واضحًا، حتمية حضوره أمرٌ لا بديل عنه، فأين هو إذًا؟!

تتحرك في غرفتها متثاقلة، ليس القلق وحده ما يرهقها، الآلام المتصاعدة التي تضرب أسفل بطنها منذ رحيل الشمس أيضًا تقلقها،

نذيرٌ باقتراب موعد الوضع وزوجها لم يأت بعد، مولودها السابع وقد يكون الأخير، أرهق الحمل والوضع جسدها كثيرًا في المرات الست السابقة. الجدة الأم أخبرها بضرورة أن تكون تلك هي الأخيرة وإلا كان المقابل حياتها هي، ليست حياتها هي أكثر ما يهمها –فالموت آتٍ في موعده ولا مفر منه– رأس زوجها المرفوعة وسط عشيرته هي أهم ما يشغلها، وكيف يرفع رأسه وسطهم وهي لم تأتِ له بالولد الذكر الذي سيحمل اسمه ويُخلّد ذكراه.

منذ سنوات وبعد ابنتها الرابعة تسمع همسات الجدة إليه كلما جاء إليهم ليزورهم بضرورة الزواج من أخرى تأتي له بالذكر.. تعلم أنه يقاومهم جميعًا منذ سنين، أمَّه، وأخته، وأخواله، ولكن لو جاءت تلك المرة أنثى هل سيظل ثابتًا على موقفه؟

منذ شهور حملها الأولى والجدة الأم تعد عدتها .. تستحضر كل موروث عشيرتهم القديم، ضربت الرمل، أحاطتها بكل أنواع التعاويذ المعروفة وتلك التي لا يعلمها أحدٌ غيرها، ميراث قديم تتناقله كَبِيرةُ العشيرة جيلًا بعد الآخر.

سمعتها وهي تملي خطابها الأخير إليه ... تخبره بحتمية وجوده لحظة الوضع ليتم الترتيب الأخير؛ ليترل المولود ذكرًا لا بد أن يُقدِّم هو القربان الأخير بنفسه، يرقص الرقصة المقدسة على أنغام آلام وَضْعِها، تكون يداه هي أول ما يلمس الوليد حتى يتحقق المراد لهم جميعًا.

فرصتها الأخيرة معه هذه الليلة لو جاءت أنثى لن يتمكن من الاستمرار في عناده، لن يقف أمام زواجه من أخرى أيُّ شيء ولا حتى هو نفسه ... ولكن أين هو الآن؟!

***

قبل الفجر بقليل تحرّك من فراشه نافضًا عنه تلك الأغطية الثقيلة التي يُدثّر بها جسده حاميًا إياه من برد العاصمة القارص في يناير. تحرك من رقدته مُنْهِيًا محاولاته البائسة في الحصول على قسط وافر من النوم دون تقطع أو قلق، ليس معنى أنه سيبدأ مع أولى أشعة شمس الجمعة إجازتُه التي استقطعها بصعوبة من صاحب المترل أنه لن ينهي بعض الأعباء المتعلقة في رقبته قبل أن يفرغ لنفسه تمامًا.

بعد الفجر مباشرة يمسح درجات سلم المترل المكون من ثلاثة عشر طابقًا، والرصيف المواجه لباب المترل، ومدخل الجراج على يمينه، والجزء المواجه لمحل الحاج على يسار مدخل المترل، ذاك المحل الذي يحتل ناصيتين على مدخل الشارع الكبير. عليه بعد ذلك أن يحضر إفطار الحاج، وجرائد الصباح، ومستلزمات وليمة غداء الجمعة التي يداوم عليها الحاج في تقليد عائلي مقدس. كان الحاج قد ترك له ورقة بها كل ما يحتاجه مساء أمس قبل أن يصعد إلى شقته.

أنهى كل ذلك قبل الحادية عشرة بقليل، اطمأن على حاجياته في حقيبة سفره القماشية التي أعدّها منذ ليلتين ليتأكد من عدم نسيان

شيء. دخل ليستحم قبل صلاة الجمعة تلك السُّنة التي يداوم عليها منذ بلوغه بلا انقطاع، ألقى بجسده تحت الماء الساخن ليمسح عنه أوساخ العاصمة، همومها، آلامها، وصخبها. خرج بعد أن نشّفَ جسده جيدًا وتعطّر بالعطر المميز له ولأبناء عشيرته جميعًا.

ارتدى ملابسه وألقى بالحقيبة على كتفه وتحرك مسرعًا. كان قد قرّر أن يصلي الجمعة في المسجد الكبير في الميدان المُطلّ على محطة القطار في قلب العاصمة. في الطريق رأى كثيرًا من عربات شرطة مكافحة الشغب الزرقاء المميزة، والكثير من عساكرها بزيهم الأسود المميز، خوذاتهم الصلبة، عِصِيّهم الغليظة، ودروعهم الزجاجية الواقية ينتشرون في طرقات قلب العاصمة، يحيطون بجميع مداخل الميدان حول المسجد الكبير.

لم يهتم كثيرًا .. كانت قد تنامت إلى مسامعه بعض الأخبار عن تظاهرات غاضبة اشتعلت منذ ثلاثة أيام في قلب العاصمة. اعتاد أن يسمع أخبار التظاهرات من قبل وكذلك أخبار انقضائها دون جديد. الأمن يقبض على الكثير من المنتمين لتيارات مختلفة، دائمًا لا يتحمل ذهنه مشقة حفظ أسمائها، فلم يشغل باله بتلك الأخبار، ولم يعنيه أيضًا كل هذا الحشد من الجنود ... هو سيُصلّي وينطلق مسرعًا للّحاق بالقطار. الطريق من المسجد إلى محطة القطار في الطرف الآخر من الميدان يمكن أن يقطعه بسهولة في عشر دقائق.

أذان الظهر يصل إلى مسامعه قبل أن تخطو قدماه داخل المسجد. أدّى ركعتين سريعًا وجلس في أحد الأركان الخالية وهو يحاول أن ينصت إلى الخطبة التي يلقيها شيخ المسجد على مسامع المصلين. استطاع أن يسمع بعض الجمل عن حرمة التظاهرات وعدم شرعية الخروج على الحاكم وولي الأمر وسط الأفكار التي تشغله خطاب الجدة الأم كان واضحًا، طقوسها المقدسة التي عزمت على أن تؤديها. كان قد تلقى تعليمًا إلزاميًّا في مرحلة صباه قبل أن ينتقل إلى العاصمة مع خاله الأكبر وجاور قليلًا في الأزهر؛ لذا فهو يرفض وبشدة تلك الأمور، كما أنه سمع كثيرًا عن رأى الطب الشهير في مسئولية الذّكر وحده عن تحديد جنس الجنين؛ لذا فهو يدرك أن نصف دستة الإناث التي وُلدت له حتى الآن هي مسئوليته هو، وليس كما يظنون مسئولية زوجته التي تحمل ظلمًا هذا الذنب.

ربما لم يكن يميل إليها قبل الزواج، ولكنها في النهاية زوجته. مشاعر الألفة والعشرة ونصف دستة من الإناث بينهم أكبر بكثير لديه من الحب، وربما تعدت ذلك وكانت أكبر من الرغبة في ذَكَرٍ يحمل اسمه من بعده. يدرك جيدًا أن الجدة الأم لن تترك إليه سبيلًا للرفض تلك المرة إن جاءت أنثى، ستزوجه من أخرى شاءَ أم أبى، فلم تعد هناك لزوجته فرص أخرى في الحمل والولادة، تلك هي فرصتهم الأخيرة جميعًا.

انتزعته أدعية الخطيب من أفكاره فأخذ يُؤَمِّن خلفه بشفتيه فقط، وهو يدعو للحاكم بدوام الصحة وحسن العاقبة وتيسير صالح الأعمال للعباد، ثم قام من مجلسه منتصبًا في الصف مؤديًا الصلاة.

***

الآلام بدأت تزداد عليها، خبرة ست مرات وضع سابقة جعلتها أكثر قدرة على تمييز آلام الوضع الحقيقية من المزيفة وهي الآن حقيقية، خبرتُها أيضًا تجعلها تدرك أن ساعة الوضع لم تحن بعد ولكنها اقتربت جدًّا.

تحركت نحو عمتها —أخت زوجها، كما اعتادت أن تناديها— الراقدة على حصيرة مفروشة في صحن الدار. أرسلتها الجدة الأم لتعتني بالحامل حتى موعد الوضع. الدار تحتوي فقط على حجرة نوم واحدة: سرير للأب والأم بجوار حائط، حصيرة مفروشة على الأرض بجوار الحائط الأخر تنام عليها البنات الست. أخذتها العمة وافترشتها في صحن الدار بعد أن ذهبت البنات إلى دار الجدة ليرقدنَ هناك. انتبهت العمة من النداء الأول، استوعب عقلها الأمر سريعًا وتحركت دون إبطاءٍ نحو دار الجدة الأم.

أخذت تتحامل على نفسها، على آلامها المتتالية. تتحرك في غرفتها قَلِقَةً، تسير بضع خطوات وتتوقف قليلًا حين يفاجئها الألم.

الأمور بدأت تختلط في ذهنها، آلام جسدها المرتجف بردًا، قلبها المضطرب رعبًا، زوجها الذي لم يصل بعد، حكم الإعدام الذي سيصدر بحقها بعد أقل من ساعة فهي ستنجب أنثى، هي أرض لا تأتي إلا بالإناث ولا تملك أن تفعل شيئًا، صلّت وابتهلت إلى الله كثيرًا ولم يستجب.

الجدة الأم بصلابتها الشديدة لا تستطيع أن تُدرك أن زواجه من أخرى يقتلها، وكيف تدرك الأمر وهي لم تجربه! إنها لم تتمنَ رجلًا غيره منذ أن بدأت تعي كونها أنثى، ولا تتخيل اليوم أن هناك من سيشاركها فيه أبدًا. كم تمقُت نساءَ عشيرتهم جميعًا! كم تمقت تلك الجدة ذات المئة عام ويزيد! كيف تفهمها وهي ابنة الثلاثين ربيعًا؟! كيف ...؟! كيف ...؟!

أين هو الآن .. كم تشتاق لوصوله ! كم تتمنى أن تدفن رأسها القَلِقَ في صدره! تشتم رائحة عرقه الطيبة، يخلصها بابتسامته الرقيقة من كل ما تعانيه، يأخذها بعيدًا هي وبناتها السبع وحدهم في ذلك المكان الذي رسمته دومًا في خيالها بعيدًا عن القرية الخشنة التي لم تفارقها قط، ولكنه لم يأت بعد.

تتمنى رغم كرهها أن تنجح محاولات الجدة الأم الليلة. تعلّمت على يديه كرهَ كل تلك الممارسات، ولكنها اليوم تبحث عن القشة التي تنقذها. كثيرًا ما سألته عن سر رفضه لذهابهم معه إلى العاصمة،

إجابته بعدم رغبته في أن تخدم الناس وتتحمل إهاناقم لها – وهي هنا الملكة المتوجة في بيتها– لا ترضيها، أيُّ ذلّ وإهانة هناك أكثر مما تلاقيه هنا وسط عشيرهم من نظرات النساء لها كالموبوءة بالإناث يجب أن يتخلصوا منها!

أخت زوجها لم تتركها لأفكارها كثيرًا .. جاءت ومعها ثلاث عجائز يرتدين الأبيض – أو هكذا رأهم–، أرسلتهم الجدة الأم ليعتنوا بها في الطريق. أمسكوها برفق واقتادوها إلى خارج الدار نحو الخيمة التي أمرت الجدة بنصبها في ساحة القرية في المنطقة الواسعة بين سفح الجبلين المحيطينِ ببيوت القرية. لم يتحدث معها أحد، ولم تمانعهم في أي شيء.

في الخيمة كانت الجدة الأم قد أعدت عدها جيدًا. سبقتهم إلى هناك، أشعلت البخور فامتلأت به الخيمة قبل أن يصلوا، الأدوار كانت مرسومة بدقة، وجوده كان أمرًا حتميًّا لإتمام الطقس كما يجب.

لم تكن قد لجأت إلى تلك الطقوس من قبل. لم تصل الأمور إلى هذا الحد منذ أن أصبحت هي الرأس المدبر لهذه العشيرة. تاريخ العائلة التي تلقته في شبابها لم يحتوِ إلا على حادثتين فقط لاستخدام تلك الطقوس آخرهما كان منذ عهود طويلة، واليوم ورغم أنها تعلم برفض الجميع لنكرها ستنفذه، لن تجعل شيئًا يقف في طريقها. عدم

تمكنه من الحضور يمكن تفسيره على أنها رسالة إلهية لعدم إتمام الطقس، ولكنها لم ترجع أبدًا عن طريق بدأت السير فيه، ولن يحدث هذا اليوم مهما كان السبب، فقط سيتم إعادة توزيع الأدوار.

ألقت أولى تعاويذها قبل أن تخطو الشابة إلى داخل الخيمة. ساعدت النسوة الثلاث وأسندوها جميعًا على الحصيرة المفروشة وسط الخيمة، لقّنت النسوةَ دورَ كلٍّ منهن، وأمرهن بصوت حازم قوي بالبدء في التنفيذ الفوري.

***

لم تسر الأمور كما تخيّلَ .. ختم صلاته مسرعًا مُسلّمًا يمينًا ويسارًا. خطف حقيبته من على الأرض بجواره، وعلقها على كتفه وهو يجذب حذاءه من على الرف، قدميه تخطو سريعًا نحو باب المسجد محاولًا اختراق صفوف البشر المتراصة.

في الشارع خارج المسجد الأمر كان أكثر صعوبة. أعداد البشر كانت تفوق ما يمكن أن يتخيله عقله، هو الذي لم يترل من قبل إلى أي تظاهرات وعدم حدوث أي تغيير من التظاهرات السابقة كان يُنبّئ في ذهنه عن قلة العدد، فمن المستحيل أن يترل هذا العدد كل مرة ولا يُحرِّك المياه الساكنة، هكذا كان يُحدِّث نفسه وهو يجاهد للوصول إلى محطة القطار.

رحلة سفره الآن هي الأهم، القطار أوشك على مغادرة الرصيف والمسافة بينه وبين المحطة تزداد بفعل الكتل البشرية المتحركة. لعن صاحبَ العقار الذي يعمل به في سره ألف مرة، لو كان منحه الأيام الثلاثة الزائدة التي طلبها لكان اليوم وسط عشيرتة بعيدًا عن كل ما يحدث وحتى دون أن يدرك أنه حدث.

حاول الدوران من خلف المسجد لعله يهرب بعيدًا عن تلك الكتل البشرية. جنود الأمن تقفل كل الطرق حول المسجد، كل محاولاته للإفلات لم تفده بشيء، وجد نفسة محاصرًا بين الجنود من ناحية وبين كتل بشرية غاضبة من ناحية أخرى.

الوقت يمر، أمواج البشر تمر .. وهو بين هذا وذاك يسير في اتجاهه المحتوم بعيدًا عن رحلته. لم يعد هناك أمامه سوى التسليم لمصيره وترك جسده يسير مع السائرين بقوة الدفع، فالقطار لا بد أن يكون قد غادر المحطة الآن. هتافهم العالي يهزُّ أركانه، يخبره لماذا خرجوا اليوم. الشعب يريد إسقاط النظام ... بصوت رتيب، منظم، هادر ..

الجميع يردد الهتاف، صوته اختلط بأصواتهم الهادرة .. قوة داخلية غامضة تدفعه للصراخ بأعلى صوته معهم، وكأن الأمر يعبر عنه وحده، وكأن الهتاف الهادر يخرج منه هو فقط وبقية الأصوات ما هي إلا صدى لذاته. بشكل أو بآخر هو يريد الحرية، والحق، والعدالة الاجتماعية .. الشعب يريد... هو الشعب ... هو يريد....

دخان البخور المتصاعد يملأ جو المكان، صوت صرخاتها يتصاعد بين الحين والآخر ألمًا. عمتها تجلس بجوارها تشدُّ على يديها وتمسح قطرات العرق من على جبينها. صوت الدفوف يشغل فراغ صرخاتها المتقطعة بإيقاع متزامنٍ مدروس ... ثلاث دقات من الصوت الغليظ، دقة واحدة من الصوت الحاد. في الخلفية يرتفع صوت الجدة الأم الرخيم ببطء وهي تشدو بأهازيجَ لم يسمعها أحدٌ من الحاضرين من قبل. إيقاع دقات الدفوف مع رتابة صوتها الرخيم يصنعانِ مزيجًا مهيبًا، جسدها العجوز لم يفقده الزمن كل مرونته بعد وهو يتحرك متمايلًا مع الإيقاع. صوت الدفوف يتعالى مع صرخاتها المتتالية، فترات الفراغ تقل تدريجيًّا مع تداخل الأصوات الثلاثة المكونة لتركيبة المشهد الصوتية. صرخات الأم تتسارع، صوت الدفوف يتعالى متداخلًا، وصوت الجدة المترنم بالأهازيج ... الشعب يريد .... الأمواج البشرية تتوالى في الاتجاهين.

جسد الجدة الأم يتمايل بشكل أفعواني مَرِنٍ وكأن مسًّا من الشيطان انتابها .. الصرخات تتوالى ... الخطوات تتداخل ...

أصوات الهتاف تختلط بصرخات الألم وصوت الطلقات دون اعتبار للبعد المكاني. انقباضات رحم الأم تتسارع ويتسارع معها دوران جسد الجدة الأم في حلقات متداخلة، صوتها يرتفع متداخلًا مع صرخات الأم العالية، قطرات العرق تسيل على جسد الجميع،

الخطوات تتداخل، الجميع يتدافع هربًا لأقرب اتجاه، الدم بدأ يسيل من أجساد الكثير ومن فَرْجِ الأم مع ظهور رأس جنينها الوليد. العمة تسرع لتستقبل بيديها الوليد، الجدة الأم تدور، الأب توقف عن الجري بعد أن لمح من بعيد نهاية الطريق، الجدة الأم ما زالت تدور. التركيبة الحركية للمشهد تتداخل بسرعة .. خطوات الأب المتعرجة تتقاطع مع دوائر الجدة، انقباضات رحم الأم مع أنصاف دوائر ضاربات الدفوف.. الهتاف ما يزال مرتفعًا.. الشعب يريد ... صوت الجدة الأم يتهدج تعبًا وهي ما تزال تترنم بتعويذتها الأخيرة. خطوات الأب تتقاطع، دوائر الجدة تضيق، الأصوات تتداخل .. دفوف، طلقات نارية، صرخات ألم، صرخة أول أنفاس الحياة لطفل وليد. العرق يختلط بالدماء، صرخة أخيرة عالية، الدماء تتناثر لتملأ المكان، ابتسامة رضا لحدوث شيء صحيح ولو للمرة الأخيرة، انفصال تام للأبعاد الزمانية والمكانية للمشاهد مع انهيار حاد في تركيبة الشخوص، أجساد تتهاوى بفعل آلام الزمن، وأجساد أخرى تتهاوى بفعل أحلام الغد البعيد تحمل في طياتها نذيرًا بانهيار أبعاد الكون كله...

بانهيار حتمي لكل شيء.

وما زالت تقترب من الرحيل!!



خطُ الأفق بلون الدم ... قرصُ الشمس ينكمش ببطء ... رأسٌ ترتفع نحو السماء، ابتسامةٌ باهتة ترتسم على وجهه الصغير، لمعة في عينيه:

- امتى راح يعاود بابا؟!

سؤال ردّده للمرة الخامسة هذا اليوم. لم تدري بما تجيبه، لم تشأ أن تتركه في حيرته:

- روح العب ... لما الشمس تقرب تروح راح يعاود

تركها وأسرع خارجًا إلى الحديقة ليلعب وهو ينظر بين الحين والآخر إلى قرص الشمس في السماء.

اشتعلت حيرتها ... كانت تدرك أنها تراوغ وليدها. لم تكن تعلم حقًّا متى يعود. أخبرها ليلًا بينما كانا معًا في الفراش أنه سيبحث غدًا عن وسيلة للرحيل، لقد ملّ الانتظار، خزينُ الدار أوشك على النفاد،

الدمار يحيط بهم من كل اتجاه، الطرق مقطوعة. سيذهب ويبحث عمّن يأخذهما معه من القوافل الطبية أو قوافل الإغاثة التي تأتي لتقديم العون، أو سيبحث عن أي وسيلة أخرى. أكّدَ لها أنه لن يعود إلا بوسيلة الرحيل، فقد كان من الغباء التمسك بأرضٍ تنهار من حولنا بينما هجرها الجميع.. أي ذكريات تساوي الآن حياتها وحياة طفلهما التي باتت في خطر! كان لا بد أن يستمع لصوت العقل من البداية، والآن سيحاول تصليح خطئه، بل سيصلحه مهما كلفه الأمر.

التزمتِ الصمت .. لم يكن بيديها ما تقدمه له ولا تلومه على شيء، فقد وافقته عن اقتناع من البداية. لم يجبرها على شيء، بقيت معه لأنها تكره الرحيل، لا تريد العودة مجددًا لمعسكرات إيواء اللاجئين. ذكريات ماضي طفولتها الكئيبة والإحساس أنها جزء رفضه عالمٌ تحكمه نزواتُ مجدٍ زائف لقادة يتحمل ثمنَها الضعافُ من شعوب لا ذنب لها أجبرتها على التشبث معه بحلم البقاء في أرض صَنَعَا منها معًا حياة لهما بعيدًا عن ماضٍ مؤلم لكليهما، أرضٍ حَلَمَا بصنع مستقبل لطفلهما ذي السنوات الخمس الذي لم يذنب في دنياه بعدُ ليدفع ثمن شيء. رغم كل ما كان يجول بخاطرها لم تجد رغبة في الحديث، ولا حتى لِتَشُدَّ من أزره وترفع النزر اليسير المتبقي من روحه المعنوية. اختبأت بين ذراعيه من كل شيء، ونامت بعدما أضناها السهر.

في الصباح الباكر استيقظت ولم يكن هناك .. الفراش بارد، نبرة اليأس التي اشتمتها في حديثه أقلقتها ولكنها تثق به، مصائب الدهر التي خبروها معًا تجعلها تدرك أنه رغم الظروف واليأس الذي يحتل وجدانه سيبذل أقصى قدر ليجد لهم مخرجًا. أعباء المنزل ألهتها، ها هو وليدها الصغير يعيد إليها حديثه، يزيد من قلقها بإلحاحه الزائد غير المعتاد في السؤال عن موعد عودة أبيه!!

خطُ الأفق بلون الدم ... قرصُ الشمس ينكمش تدريجيًّا .. يترك الصغير لعبته، ينهض، يمسح التراب العالق بيديه الصغيرة في ظهر بنطاله القصير.

يدخل المنزل، ينادي على أمه بإلحاح أشد ... نبرة صوته تحمل قلقًا زائدًا:

– *الشمس قربت تروح وبابا ما عاود؟!!*

لم تكن تملك ما ترد به عليه ... ضمته بين ذراعيها، وأخذت تُقبِّل رأسه، تلوذ إليه؛ لتحتمي ببراءته الطفولية من الغدر، القبح. أحست في تلك الضمة بأن عمرهما معًا يمر.

أزيزٌ يملأ السماء، هديرٌ كالرعد، صوتُ انفجار يصم الآذان يجعلك لا تسمع صوت الصرخات، نيرانٌ ودمارٌ يملآن الصورة.

اقتربْ قليلًا لترَ أوضح .. غبارٌ يحتل الهواء، يحجب الرؤية. تحتاج لبصيرة أنقى وقليلٍ من الصبر لتدرك الحقيقة ... حطامٌ وسط الحطام، سترى جسد امرأة من بقايا ملامح وجهها ستعرف كيف أضناها التعب، بين ذراعيها ستجد وجه طفل صغير كبير، طفل ينام بهدوء كملاك، ابتسامة بريئة متيبسة على وجهه، وجه يحلم ... ينتظر ..

والشمس ما زالت ...

تقترب من الرحيل!!

أيوب



مفتتح

صرخات صوته المترددة في الفضاء المحيط بساحة القرية الخاوية على عروشها إلا منه بدّدت صمت الليل.

أيوبُ صاحَ اليومَ مِلْءَ السماء*

***



مع أشعة الشمس الأولى كان الخبر انتشر كالنار في الهشيم وصولًا إلى منزل كبير القرية. صرخات أيوب أمس بدّدت صمت الليل، أفزعت النوم من جفون أهل القرية ففرّ منها بلا أي أمل في العودة قريبًا. كلماته ما تزال تتردد في آذان الجميع كبقايا كابوس مفزع، حتى الأطفال والرضع الذين لا يفقهون معنًى لكلماته انخرطوا في بكاءٍ مستمر من وقتها ولم تفلح محاولات أمهاتهم في إسكاتهم.

الكل الآن مجتمع أمام بيت كبيرهم، عيونهم منتفخة محمرة من التعب وقلة النوم، رؤسهم منتفخة من كثرة الحديث وبكاء الأطفال المستمر بلا توقف، الوضع في قمة توتره واشتعاله لا حديثَ إلا عن رأس أيوب؛ جزاءَ ما فعل.

الأمور في الداخل لم تختلف كثيرًا ... الجدل حول ما حدث هو ما كان يفرض نفسه على الحضور، هدوء الأصوات فقط هو ما كان

يميزهم، ربما لأن القرار قد حُسِم برأي الأغلبية الحاضرة بالخارج، ولن يجرؤ أحدٌ على قول شيء آخر فلم يعد هناك سبب للانفعال.

كبيرهم كان يجلس ولكنه لم يكن حاضرًا، صراع الأفكار المحتدم داخل رأسه كان يشغله. أيوب لم يكن يومًا مجنونًا، أو على الأقل أيوب الذي عرفه في صباه وشبابه لم يكن يومًا مجنونًا، حتى حين قرّر أن يترك كل شيء؛ منزله الكبير، وعمله ككبيرِ كهنةِ ومعلمي المعبد ويسافر في رحلة للجبال البعيدة، وحين عاد مُبَشِّرًا بخطر يُهدِّد بقاءنا لم يظن أحد أن مسًّا من الجنون أصابه، فتاريخه وقيمته كانت أكبر من أن يفكر أحد في ذلك، ولكن ....

***

أيوب هو الشخص الوحيد الذي لم يكن غاضبًا بما حدث، وكيف له أن يغضب وهو مَن فعله بمحض إرادته وهو يعلم أنه ربما كان آخرِ شيء سيفعله. لم يسأل نفسه وهو يجهِّز أمتعته للرحيل استجابةً لرؤية تكرّرت له –وهو الكهل ذو الخمسين ربيعًا– أي شيء سيفعل في جبال غير مأهولة بالبشر، ولكنّ مخزونه الروحي وحكمة الآلهة التي أفنى سنوات عمره في دراستها جعلته يصدق الرؤيا حتى دون أن يساوره شك يدفعه للسؤال، ومن سيسأل وهو المعلم الأكبر وكبير كهنة المعبد؟! لم يكن يدرك قبل رحيله أن حياته سيبدأ تقويمُها الفعلي من تلك الرحلة وإن قصر عمره بعدها ...

كان وحده في الجبال حينما سمع الصوت لأول مرة ... منح مفتاح الحقيقة الغائبة مرة واحدة. المخطوطات التي وجدها في الكهف كانت كافيةً لتمنحه اليقين المطلق. شرط المنحة كان واضحًا، والسماء بالفعل أحسنت الاختيار.

عند عودته لم يسمعه أحد .. كان يدرك أنهم يمنعون أنفسهم عن اتهامه بالهرطقة والجنون وأن الأمر لن يدوم طويلًا، ولكنه قطع هناك على نفسه عهدًا لن يستطيع ولا يريد أن يحل نفسه منه مهما كانت العاقبة.

الصدام الأول معهم لم يتأخّر كثيرًا. خطبة العيد كانت موعدهم معه. اختيار التوقيت لم يكن له، الأمر برمته محض أوامر يتبعها.

على المذبح وقف يعظ الجميع احتفالًا بالعيد. الحياة والمنح التي تأتيهم من السماء كانت موضوع بدايته، حتمية محاولة البحث عن الحقيقة وراء الأشياء، وضرورة التخلي عن ثابت الماضي المنافي لعقل المنطق البين -كان محورَ حديثه. وجوه الجمع المتململة من الحديث تملأ الصورة أمام عينيه وتدفعه نحو حقيقة الأمر الجلية بمنطقية ما قرره فلا سبيلَ معهم غيره، أدار دفة الحديث مرةً أخرى إلى صغائر الأمور حتى أيقن سيطرته على آذاهم جميعًا صرخ خاطفًا أنفاسهم جميعًا. صمتٌ مطبق أعقبه بفعلته التي لم يتوقعها أحد، أخذ يدور حول المذبح مُبَشِّرًا إياهم بنهايتهم المحتومة، نارُ قرابينهم اشتعلت في تماثيل آلهتهم

الخشبية الموجودة في المعبد، النار تملأ محيط الفراغ في الصورة، لحظات إدراك الموقف لم تكن طويلة قبل أن يهدر رعد الصرخات.

قبل نهاية يوم العيد كان أيوب مقيدًا بجذع شجرة في الساحة الكبرى وجسده يسبح في دمائه التي هدأت من ثورة أهل البلدة التي طالبت برأسه ثمنًا لما فعل.

أيوب اليوم يعلم أن رأسه هي الثمن ... أخبرته رؤياه بهذا قبل أن يأمره الصوت بما فعل. مهمته انتهت ... فَعَلَ ما استطاع، ولكن الأمر أصعب مما كان يظن. لا سبيل معهم، لقد أغلقوا آذانهم، وأوقفوا عقولهم عند ما ورثوه من تماثيل راسخة في وجدانهم قبل أن ترسخ في أرض قريتهم ... سينالون نهايتهم حتى ولو لم يدركوا ذلك.

يسمع وقع أقدام الجنود يقترب من كوخه، لن يخطئ في خطواتهم المسرعة على أرضية خواء الفراغ خارج الكوخ. تحرك نحو الباب وهو ينظر خلفه نظرةً أخيرة.

خارج باب الكوخ كان الجنود يقتربون ... أيوب في الانتظار يجلس والنار خلفه تأكل كلَّ شيء؛ كوخَه، وكتبَه، ومخطوطاته، عمره الذي أفناه دون أن يكون نادمًا على شيء. ابتسامته تملأ وجهه المضيء، فهو لن يكون وحده .. القصة كلها أنهم لن يروا الأمر كما يراه هو.

***

مختتم

الشمس تقترب من مثواها الأخير، صمت القبور يحتل الساحة الكبرى التي تتوسط القرية، أهل القرية في بيوتهم نيامًا بعد أَمْسِهم العصيب ونهارهم الأصعب. جسد أيوب يتأرجح من أعلى حيث علّقوه مُشَكِّلًا الحركةَ الوحيدة الموجودة وسط فراغ الخلاء.

صوتٌ يتردد في السماء بعيدًا، يقترب ببطء نحو الأرض فلم يحن وقته بعد.

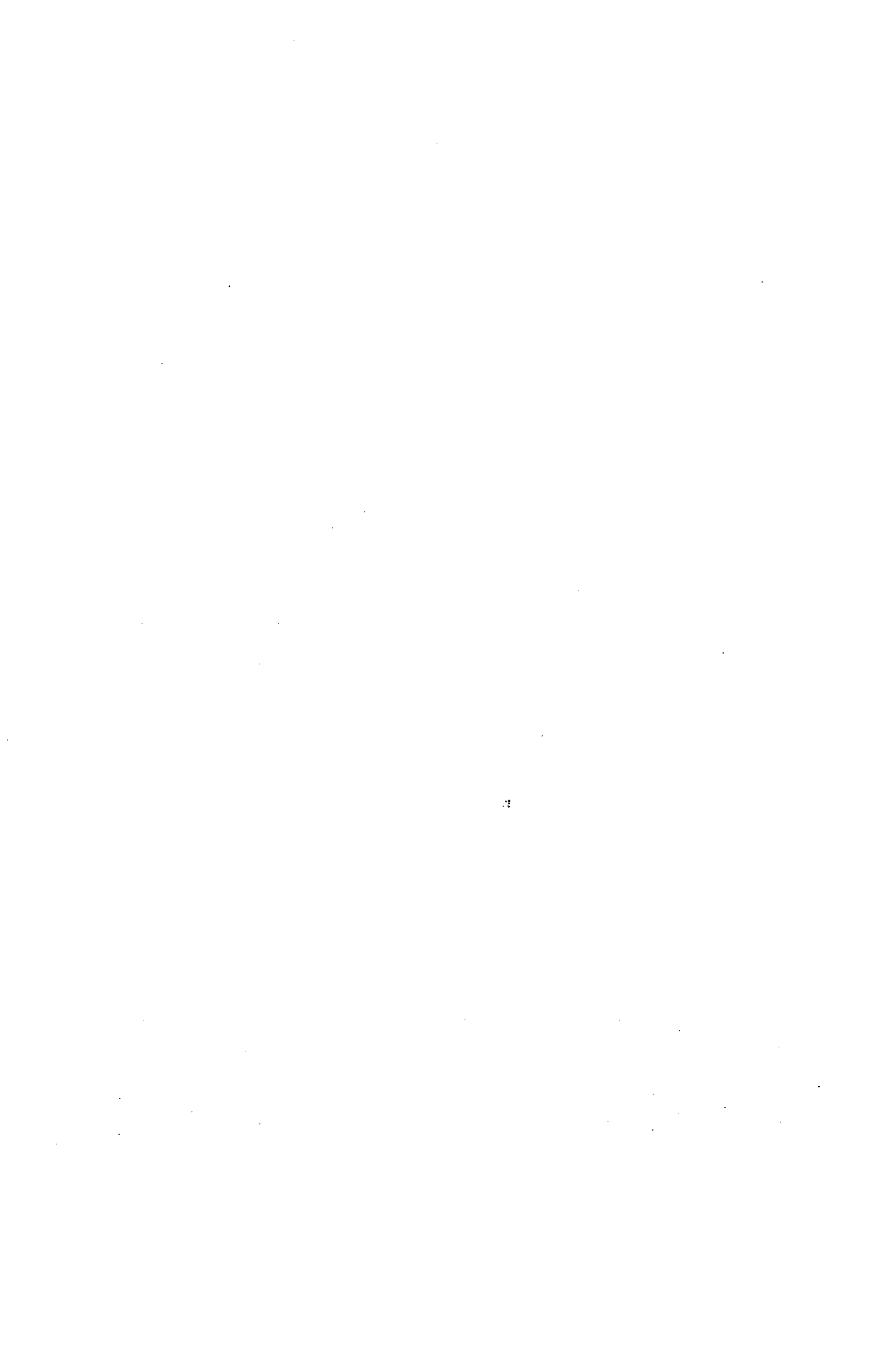
صبر أيوب شفاه

بس الأكاده مات بفعل الأمل ! **

---

* محمود درويش .. جواز سفر

** رباعيات صلاح جاهين بتصرف



حياة جديدة ..

في المرآة الزجاجية التي تحتل الجانب الأكبر من التركيب الداخلي للمصعد في ذلك البرج الحديث أخذت تتأكّد من هندامها، تعدل خصلات شعرها المتناثرة بفعل هواء الشتاء البارد، تتأكد من المكياج الهادئ الذي وضعته بعناية قبل أن تخرج من منزلها، ترسم على ملامحها ذاك القناع الذي اعتادت أن ترسمه لتعزل عن الجميع النيران التي تشتعل بداخلها.

بخطواتها البطيئة الهادئة أخذت تقطع المسافة الفاصلة بين المصعد وغرفة مكتبة، ليست بالمسافة الطويلة ولا بالمتناهية الصغر، اعتادت عليها من المرات التي زارته فيها بمكتبه. أخذت تستكمل في طريقها مهمة إتقان رسم قناعها، تستجمع ذاكرتها لتحضر الحديث الذي أمضت ليلتها الماضية في التدرب على إلقائه. المهمة ليست سهلة وتود الانتهاء منها سريعًا، وبأقل أخطاء.

ردّت التحية بهدوءٍ على أحدهم وقد خرج من إحدى المكاتب مُشَتِّتًا تركيزها، تطرُق بيديها الباب وتحركه إلى الداخل قبل أن تنتظر سماع أي إجابة تأتيها من خلف الباب.

رسمت ابتسامة رقيقة شهية على وجهها قابلت بها الفتاة التي تجلس على مكتب السكرتارية، كانت قابلتها عدت مرات من قبل دون أن ترتاح إليها. بحديثٍ مقتضب أخبرتها برغبتها في مقابلة رئيسها مع الاعتذار عن الحضور بدون موعد.

- اتفضلي حضرتك الأستاذ عنده اجتماع أول ما يخلص حضرتك تقدري تقابليه.

ودون أن تكلّف نفسها عناءَ الرد أو الابتسام رمقتها بنظرة سريعة وإيماءة خاطفة من رأسها، وألقت بنفسها على الكرسي الجلدى المقابل لمكتب السكرتارية وهي تطلب منها فنجانًا من القهوة المضبوط.

لتمضية الوقت .. كان ممكنًا أن تفتح مع الفتاة أي حديث تافه، ولكنها فضّلت الاستمتاع بهدوء المكان ورشفات فنجان قهوتها؛ لتمنح ذهنها بعض الراحة.

بطيئًا مرّ عليها الوقت ... حتى أيقظها صوت الباب الخشبي وهو يُفتح وصوته يلقي بتعليمات نهائية على مرؤسيه قبل أن يرحب بها بلهجة يشوبها الكثير من الدهشة.

- *يا بتي أنت مش كلمتيني الصبح ليه مقولتيش إنك جايه*

وقبل أن تجيب عليه كان قد أفسح لها طريقًا لمكتبه، وأمر سكرتيرته بمنع الاتصالات عنه حتى يخبرها.

جلس على الأريكة المقابلة للمكان الذي اختارت أن تجلس عليه بعد أن أغلق الباب الخشبي. ببعضٍ من المزاح سألها عن سر الزيارة السرية المفاجئة تلك، محاولًا إخفاء الدهشة والقلق الذي باحت به أحرف سؤاله.

أخرجت من حقيبتها علبة السجائر الذي يعلم أنها لا تشربها إلا إذا كانت تمتلئ بالتوتر والقلق. سحبت سيجارة من العلبة وأشعلتها وهي تسحب منها نفسًا بطيئًا وتخرجه بهدوءٍ مصطنع – تدربت عليه طويلًا بالأمس– موجهةً حديثها إليه معتذرةً عن الحضور بهذا الشكل رغم إدراكها أنه مشغول. وعدته بعدم الإطالة، وتعللت برغبتها في بقاء الأمر سرًّا بين جنبات هذة الغرفة فقط.

- *قلقتيني أنتِ كده أكتر .... حصل أيه بس؟*

قامت من جلستها، وأخذت تدور في الغرفة وهي تزفر أنفاس سيجارها بتوتر بالغ أسقط عنها كل الأقنعة التي كانت ترسمها بعناية. انتقل إلى صوتها اضطرابها وهي تجيبه:

- *بحبك ... آه بحبك .... أو تعرف كنت قوي*

ألقتها وهي تلقي بنفسها على الأريكة غارقة في دموع صامتة.

دقائق بطيئة مرت في صمت قاتل لم يقطعه لثوانٍ قليلة سوى صوتِ القَدَّاحَة وهو يشعل سيجارة من علبتها.

***

نهارٌ صيفي حار ... موعدها معه حدّده هو في السادسة مساءً. تجلس في المطعم من الرابعة في انتظاره، وشَغْلًا للوقت قررت أن تعيد استحضار ما أمضت الجزءَ الأكبر من ليلتها أمس في تحضيره لتقضي على الخجل الذي يبقي على العلاقة بينهما كل هذة المدة دون أي تتطور ... ما الضرر أن تبدأ هي وتخبره أنها تحبه.

- *أيوه مفيهاش حاجة يعني أول ما يجي هخبطها كده ع طول... أنا بحبك سهلة أهي ...*

عدم ثقتها في جرأتها جعلها تحاول الهدوء وتكرار الجملة أكثر من مرة داخلها. ماذا ستنتظر أكثر من ذلك؟! منذ اليوم الأول للقائها معه وهي تشعر بالارتياح إليه، ومع تعمق معرفتها به أصبحت ترى فيه شابًا جذابًا ... مثقف، متفتح العقل، يحترمها، تراه الرجل المناسب الذي تتمنى أن تكمل حياتها معه.

غيابه عنها الشهر الماضي جعلها تدرك مكانته في قلبها، ما بين المرتين التي رأته فيهما لدقائق قليلة كانت الأيام تمر عليها ببطء،

كانت دومًا تشعر بأن شيئًا ينقص يومها، وتشْرُدُ كثيرًا في أحلى أيامها التي كانت تمضيها معه والتي ربما أضاعتها ولم تكلف نفسها عناء معرفة حقيقة الشعور الذي ينتابها.

ملمسٌ ناعم لكفين رقيقين التفا حول عينيها تحفظه جيدًا، وصوتٌ دافئ يداعبها تُمَيِّزُهُ من بين ألف صوت أخرجها من كل تلك الأفكار. أزاحت الكفين عن عينيها وهي تدير رأسها مبتسمةً في وجه صديقتها المقربة "ليلى" وهي تبدي دهشتها عن كيفية معرفة مكانها وهي لم تخبر أحدًا أنها ستكون هنا.

- مروان قال لي إنك هتكوني هنا وطلب مني آجي أقعد معاكي لأنه هيتأخر في الشغل، وطلب مني كمان أقولك على المفاجأة اللي جايبك النهاردة عشانها

شريط العام الماضي بأكمله مرّ أمام عينيها سريعًا بعد أن ألقت عليها صديقتها قنبلة الخِطبة المنتظرة. بكل ما تبقى لديها من قوة حافظت على الابتسامة العريضة، أخفت كل ما يدور بداخلها بقناع من البهجة والفرح ابتهاجًا بالخبر السعيد، أمضت قليلًا من الوقت ثم هربت من انتظار مروان وغادرت.

في الطريق لم تتمكن من إيقاف سيل الدموع المنهمر من عينيها، فقط حاولت التماسك حتى تتمكن من السيطرة على عجلة قيادة السيارة، وحينما تأكدت أنها أصبحت وحدها لم تمنع نفسها من أي

شيء. أخرجت آهات حزنها بصرخات ملتاعة، ألقت كل ما طالته يديها، انهارت متروية في ركن الغرفة منهكة، مبعثرة الشعر، دموعها ما تزال ترسم بالكحل خطوطًا سوداء على بشرتها .. كيف غفلت عن إدراك الحقيقة منذ البداية رغم أنها كانت ساطعةً كالشمس؟! عرفته عن طريقها، عائلته تربطها صداقة قديمة بعائلتها، دائمًا كانت هي القاسم المشترك في كل مشاهدة معها، تتذكّر الآن كل ما كانت تتغافل عنه، وبوضوح.

في الخطبة كانت رفيقة كل الخطوات .. شراء الدبل وحتى تجهيز العروس قبل الحفلة. الحب الذي رأته في ملامح ليلى ومروان جعلها تُبقي أمر حبها له سرَّ حياتها الأبدي. تعاني وحدها آلام التجربة وتحاول أن تنسى، ولأنها الصديقة المقربة لليلى وكذلك لمروان رافقتهما في مشوار حياتهما خطوة بخطوة. انشغلت بحياتهما عن حياتها، أيام كثيرة أمضتها في حل مشكلات كادت أن تعصف بزواجهما، وأيام أخرى باتتها وحدها تبكي دموع قلبها المكسور الذي يرفض أن ينسى. كانت أول من حمل الرضيع الصغير ابنهما، رأت فيه حلمها الذي كانت تحلمه، انشغلت بتربيته واهتمت به، ربما أكثر من صديقتها نفسها. صارت سببًا في بقاء تلك الأسرة هانئة، وسببًا في بقائها هي تعيسة بائسة.

***

مدّ يده إليها بكوب النسكافية الخالي من اللبن الذي أحضرته السكرتيرة منذ دقائق قليلة. ارتشف من قهوته المضبوطة رشفات قليلة قبل أن يعيد تأملها من جديد، لم يكن قد نبس ببنت شفة طوال حديثها، فقط يستمع ويراقب الدموع المنسابة وهي ترسم بالكحل خطوطًا سوداء على الوجه الأبيض، أفاق من شروده على صوتها:

- هجاوبك على سؤالك قبل ما تسأله.

لم تكن تهدف من وراء الحديث هذا أن تكون الزوجة الثانية، أو حتى أن تحل محل "ليلى" كزوجة له، لو كان ذاك هدفًا تسعى إليه لكان سهلًا عليها أن تفعله منذ زمن. هي فقط كانت تريد أن تغلق صفحة حياتها الماضية دون أي بقايا قبل أن تبدأ صفحة حياتها الجديدة، تطلب حلًّا من وعدٍ قطعته له دون حتى أن يعلم به طوال تلك المدة. تقدّم لخطبتها شريك مروان الجديد ... شاب ناضج، تميل إليه بعقلها كثيرًا وبقلبها أيضًا، وتريد إتمام المسألة. كانت فقط تريد أن تنهي هذا الأمر، تقطع كل خيوط الماضي المهترئة قبل أن تعطي ردًّا نهائيًّا في أمر زواجها.

أخرجت من حقيبتها مناديل ورقية وعلبة مساحيق التجميل، مسحت خطوط الدموع السوداء من على وجهها، زفرت بارتياح، ابتسمت إليه كما اعتادت وهي تحمل حاجياتها نحو المرآة المعلقة في طرف الغرفة:

- كلّم مراتك وقولها إني هحتاجها معايا كتير الفترة الجاية

أدارت إليه ظهرها وهي تسمع صوت حديثه مع زوجته. أمام المرآة ابتسمت لنفسها بنشوة وهي تتأمل لمعة عينيها واللون الوردي الذي يرتسم على وجنتيها. شعور الراحة الذي يتسلل إليها بخفه يملؤها بالبهجة ... الآن فقط أدركت بعد أن أزاحت ذاك الهم من قلبها أن السنوات التي أمضتها لم تضيع هدرًا، لم تكن فقط للبكاء على أطلال حب مضى. اكتشفت أنها كانت تُعلّم فيها نفسَها كيف تحب وتعطي، وتفهم كيف تقرأ أبجدية حياتها؛ لتستطيع أن تتواصل وتسطر ما تشاء على صفحات حياتها الحقيقية.

بإيماءة رضا لنفسها أخذت ترسم بعناية على وجهها الأبيض الرائق خطوطًا وألوانًا فاتحة، صورتها التي قررت أن تبدأ بها حياة جديدة.

نسيان

لم يكن يدرك كيف يمكن لها أن تنساه هكذا فجأةً. عقله القاصر عن إدراك معظم الحقائق الكونية لم يستطيع أن يدرك ماهية النسيان، أمس كانا معًا واليوم لا شيء!

- لم تعد تتذكر أي شيء، أنت بالنسبة لها مجرد شخص غريب.

الإجابات المنمقة التي ساقها لها لم تفلح في أن تفك حصار الأسئلة الشائكة التي ما تزال تحتل عقلها وعقله معًا .. مَن؟ كيف؟ ولماذا؟ وماذا بعد؟!!

صعوبة تكرار المشهد كلما توقفت قدرة ذاكرتها على الاستيعاب لا تشغل باله، الآن فقط يشغله أن يجعلها تتذكر كل شيء حتى حين.

قبل أن يودعها للنوم ابتسمت له وقبّلته قبلةً حانية على جبهته، أغمضت عينيها استسلامًا وهي تخشى أن تنساه في الصباح، تمنّت في قرارة نفسها إن لم تتمكن من استعادة قدرتها على تذكره دائمًا أن تنساه إلى الأبد. ما كان يؤرقها هو كيفية محوها من ذاكرته؛ لتحميه من عذاب تكرار لحظاتها من النسيان.



حركة نصف دائرية



أخرجه الصوتُ الأجش المرتفع من لحظات شروده القصيرة، وهو يقف منتظرًا تحرك الكتل البشرية المتراصة في الطريق أمام مسجد السيدة زينب.

مدد ... مدد يا أهل الطريق مدد ... مدد يا طاهرة يا أم العواجز مدد.

لم ينتبه قط وهو يقبل دعوة صديق طفولته للسهر معه في منزله القديم بالسيدة زينب أن اليوم يوافق الليلة التي تسبق ليلة المولد، وكيف سيتذكر وهو الذي غادر الحي بل القاهرة الكبرى كلها منذ أكثر من عشرين عامًا منذ أن تركها وهو ابن الثانية عشر؟! ربما لو كان تذكر لاختلفت وسيلة مواصلاته. لم يكن يستطيع رفض الدعوة بأي حال من الأحوال، كيف والأمر حدث هكذا فجأة .. مشكلة في استخراج بعض الأوراق الحكومية تتحول إلى مشادة كلامية تتطلب تدخل مدير المصلحة الذي وللصدفة يكون رفيق طفولته الذي انقطعت صلته به منذ أن قرّر والده الهجرة للخارج. رغم مرور

الزمن واختلاف هيئة كلاهما إلا أنه تذكره من اسمه الرباعي المكتوب في الأوراق الرسمية. انتهت المشكلة باستخراج الورق قبل انتهاء فنجان قهوته الثاني، وانتهى اللقاء باتفاق على سهرةٍ مساءَ اليوم التالي لتبادل الذكريات في المترل القديم بحي السيدة زينب العتيق، وها هو يجلس في سيارته الرياضية المستأجرة مُحاصَرًا بكتل من الأجساد البشرية التي أتت لحضور مولد السيدة زينب من أجل شيءٍ ما.

لم يستطيع أن يمنع نفسه من الدهشة وهو يراقب وجوه المتفرقين من حوله سيرًا إلى غاياقم، كيف يتعلّق هؤلاء بأملٍ مرهون ببركات جسد ميت حتى ولو كان من أهل البيت كما يقولون؟!

مدد ... مدد يا أهل الطريق مدد ... مدد يا طاهرة يا أم العواجز مدد.

أنزله الصوتُ الأجش المرتفع من سماء أفكاره المتمردة ليتأمل صاحبَه ... جسدٌ نحيلٌ يتحرك وسط الجموع بخفةٍ شديدة دون أن يعبأ بالزحام المميت. ساقه المفقودة والتي يستبدلها بساق خشبية رفيعة منحت خطواته شكلها المميز في أنصاف دوائر متتالية مثيرة للضحك حينما يتحرك بسرعة، مخيفة وموجعة حينما يتحرك ببطءٍ شديد طالبًا المساعدة. رغم أن مشاهد حي السيدة في ذاكرته فقدت الكثير من تفاصيلها وألوالها إلا أن خوفه القديم من (أبو رجل خشب) -كما كانوا يطلقون عليه- لم يترك أبدًا موقعه في أعماق عقله الباطن بكل

تفاصيل، حركته وسط جموع الناس أيام المولد الثلاثة، وصوته المرتفع الذي لم يفقد أبدًا قدرته على تمييزه وسط هدير زحام مريدي السيدة وزوار المقام في المولد.

أخذ يراقب حركاته المميزة التي لم تتغير أبدًا من خلف زجاج سيارته المتحركة ببطء الزحام والتي قرر بعد أن أيقن عدم جدواها التخلص منها بركنها في أقرب شارع جانبي يستطيع الدخول إليه، وهو ما كان قبل أن يستكمل رحلته سيرًا على الأقدام ليقضي سهرةً لم يكن لها هدفٌ، حضرها بنصف ذهن يمتلئ بأنصاف صور ونصف ذهن آخر تشغله صورة واحدة تتوالى وتتوالى للساق الخشبية التي تفسح مجالًا لأنصاف دوائرها وسط كتل اللحوم البشرية المكدسة في كل مكان.

قبل منتصف الليل بقليلٍ أنهى زيارته بكثير من الوعود التي يدرك هو وصديقه في قرارة نفسيهما أنها لن تأخذ نصيبها من التنفيذ، وقليلٍ من الأحداث وملامح الوجوة التي علقت بصعوبة بالغة في خلايا ذاكرته المستهلكة بشتى الأشياء المهمة وغير المهمة.

في أثناء عودته إلى سيارته لمحه يتحرك في أنصاف دوائره موزعًا أكوابَ الشاي على بعض المريدين الجالسين على السور الحديدي المقابل للمسجد. ارتبطت صورته في ذاكرته بأيام المولد الثلاثة فقط، لم يُرْوَ أن أحدًا رآه بعد انتهاء ليلة المولد الكبرى، ولا يدري أحدٌ أين

يمضي بقية عامه، بعضهم كان يقول أنه يدور في القرى والمحافظات زائرًا الأولياء الصالحين وحاضرًا كل الموالد، وآخرون تطرفوا وأشاعوا أنه مبروك تهيم روحُه مع مَن تهيم أرواحهم في سرمدية الكون ولا تحطُّ إلا حينما تحب.

لم تتملكه الرغبة في العودة إلى شقته المستأجرة، قرّر الجلوس قليلًا على المقهى المقابل للمسجد مانحًا لنفسه المجالَ لمتابعة الرجل ذي الساق الخشبية عن قرب. طلب كوبًا من الشاي بالنعناع الأخضر، وأخذ يرتشفه ببطءٍ شديد مستمتعًا بدفء الإحساس بألفة الجلوس وسط البشر بدلًا من البقاء وحيدًا كعادته بعد وفاة والديه وانتهاء زواجه الفاشل دون بقايا تربطه مجددًا بعالم غربته الذي تركه باختياره عائدًا؛ ليبحث عن نفسه حيث كانت أولى محاولات زراعة بذرته في الأرض.

مجال الرؤية من مكانه في المقهى لم يكن كاملًا، ولكن ديناميكية حركة الرجل ذي الساق الخشبية في المساحة المحيطة بالمسجد كلها جعلته يراه حاملًا تارةً أكواب الشاي الساخن إلى بعض الجالسين على الرصيف أمام المسجد، عابرًا قنطرة الطريق وفي يده اليمنى صينية كبيرة مملوءة بأطباق من طعام صُنع في السرادقات المختلفة المتناثرة في الأزقة والعطفات التي تمتلئ بها المنطقة المحيطة بالمسجد. إن لم تخنه الذاكرة فهو لم يُعرف عنه أبدًا انتماؤه لأي طريقة من الطرق

الصوفية، ولكنك لو راقبته عن قرب لوجدت أتباع جميع الطرق يعرفونه جيدًا دون أن يعرف عنه أحدٌ أيَّ شيء.

قبل الفجر بوقت ليس بالقليل ... الأرض بجوار المسجد وفي الحارات المجاورة وفي مداخل العقارات قد افترشتها الأجساد المرهقة من أعباء اليوم السابق ملقية نفسها في أكبر حيز تتمكن من الحصول عليه دون أن يعبأ أحدٌ بالنوم على الأرصفة في العراء، هو لم يكن من تلك الأجساد المتراصة أرضًا، اتخذ جانبًا بجوار بائع (الكسكسي) الذي تحتل عربته الموقع المقابل للباب الرئيسي لمسجد السيدة منذ سنوات بعيدة ... الهدوء النسبي الذي احتلّ أجواء المنطقة دفعه لمغادرة مكانه في المقهى ومحاولة التقرب من صاحب الساق الخشبية والحصول على بعض الإجابات محاولًا عدم الغوص بقدمه في أحد النائمين. قطع المسافة الفاصلة بين المقهى وبين عربة (الكسكسي) والتي لم تستغرق أكثر من دقيقة ... ألقى السلام طالبًا طبقًا من (الكسكي) اللذيذ متذكرًا والدته التي كثيرًا ما نهرته من أكله ليلًا حتى لا يزداد وزنه. ومع أول ملعقة يتناولها أخذ يتجاذب أطراف الحديث كعادة المصريين في كسر الملل، مع الطبق الثاني كانا قد تحررا من خجل اللقاء الأول بين اثنين لا يعرفان بعضهما وخاصة حينما أخبره أنه يعرفه منذ أيام صباه في المنطقة، ومع الطبق الثالث وكوب الشاي الساخن دار الحوار.

صوت المؤذن رافعًا أذانَ الفجر قطع خيط الحميمية الوليدة بين الكهل والشيخ العجوز، استند العجوز ذو الساق الخشبية على ذراعه ودخلا معًا إلى ساحة المسجد للصلاة، بعد ختم الصلاة كان لا بد عليه من العودة إلى غرفته للنوم. هو –قديمًا– تغلّب بصعوبة على عادات صباه بالسهر حتى الساعات الأولى من صباح اليوم الوليد، ولكنه اليوم كسر القاعدة واستحضر ماضيه بكل ما كان فيه، دهشته من عدم نومه في أحد الأركان بجوار الأجساد المتراصة جانب المسجد هنا دفعته إلى أن يعرض عليه توصيلة، سأل العجوز عن وجهته وهو يستعد للانطلاق بسيارته.

في الطريق حميمية العلاقة الوليدة دفعته إلى أن يسأل دون حرج عن سر الساق الخشبية وكيفية ضياع ساقه الحقيقية:

– هزار صعايدة تقيل شويه.

رغم عدم فهمه الإجابة إلا أن الألم الظاهر على ملامح وجهه وهو ينطق بكلماته البسيطة دفعه للصمت وعدم الاسترسال في أسئلته.

قبل نهاية الطريق بقليل قطع العجوز حبل الصمت الذي يمتد من خواء طريقهما في ساعات الصباح الباكرة، وأخبره عن وجود حضرة ذكر في مساء اليوم لا يعلم عنها الكثيرون هي فقط للخاصة من أرباب الطرق المختلفة. بعد العشاء كانت آخر كلماته وهو يغلق باب السيارة ببعض العنف، انتظاره له في المساء وصله مع بعض الكلمات التي تحمل معنى تأكيد الحضور ببعض الصعوبة وهو ينطلق بسيارته بعيدًا نحو الفراغ.

في المساء كان قد استعد للذهاب رغم عدم نومه جيدًا اليوم السابق، وتناوب الأفكار على رأسه طوال النهار. ارتدى ملابس رياضية وقرر الذهاب بالمواصلات العادية تجنبًا لمشاكل الزحام خاصة وأنها كانت ليلة المولد الكبرى. أمام باب المسجد الكبير وبعد صلاة العشاء مباشرة وجده ينتظر مستندًا على السور مريحًا ساقه السليمة وهو يصنع من ساقه الخشبية محورًا يرتكز عليه ثقل جسده العجوز دون أن يقع. بابتسامة مرحة وبجملة ثقة في حضوره هذا المساء استقبله، أمسكه من يده ببعض الشدة وبدأ يتحرك بخطواته السريعة بحركته نصف الدائرية المميزة نحو وجهتهم المنشودة. عدة انعطافات مع بعض الأمتار سيرًا ووجد نفسه أمام مسجد لم يره من قبل وهو ابن المنطقة. في الركن البعيد في داخل المسجد وجد صفين متقابلين من البشر يرتدون الجلابيب البيضاء الناصعة وكأنهم كانوا في انتظاره لبدء الحضرة، لم تمر على وصولهما دقيقتان وبدأ صوت المنشد في الارتفاع والجميع معه بالصوت وبالحركة في الثبات بشكل نصف دائري. وقف في الصف المقابل له وفي مواجهته تمامًا، وأخذ سريعًا يتحرك مثل الجميع. لم يكن يهتم كثيرًا بالتجاوب مع المنشد ولا بتقليد حركات العجوز والموجودين هو فقط كان يريد أن يشاهد كل شيء، أن يعيش التجربة لعله يجد فيها نهاية رحلة بحثه عن روحه التي تاهت منه وسط زحام وسرعة حياة لم يملك حق اختيار تفاصيل صورها يومًا، يريد أن يعرف أين سيذهب العجوز بعد انتهاء الحضرة

وانتهاء المولد بأذان الفجر ليضع نقطة النهاية لذكريات طفل مات داخله وهو يتمنى أن يعرف؟!!

لم يستوعب كيف مرَّ عليهم الوقت دون أن يدركه ... الجو ممتلئ بروح غريبة، بدأ إيقاع الإنشاد في الارتفاع... الحركة النصف دائرية للجميع أخذت في التكرار وبعنف، وجه عجوزه ذي الساق الخشبية بدأ يتلون ببياض الثلج الناصع، ذراعاه يسبحان في المحيط الفارغ حول رأسه، بينما ساقه الخشبية مركز ثقل يرتكز جسده المتحرك في أنصاف دوائر متتالية عليها دون استنادٍ على أي شيء، عيناه لا يظهر منهما إلا لون أبيض دفع رعشةَ هَلَعٍ لأن تسري ببطء في جسده كله. توقف عن الحركة وهو ينظر حوله.. أجساد منهكة ملقاة على أرض المسجد، أجساد تقف بصعوبة متحركة في حركة مترنحة بطيئة، صوت المنشد يُسمع بالكاد من شدة الإرهاق. وحده يتحرك في وسط الحلقة في حركته المميزة يمينًا ويسارًا دون كلل، نادى عليه وهو يحاول أن يوقف حركاته المتتالية دون جدوى. جسده المرهق دفعه للجلوس أرضًا في مواجهته متأملًا إياه في حركاته، عقله وجسده المنهكان مع رتابة حركات العجوز الذي جلس يتابعها بشغفٍ جعله يغفو قليلًا.

ساحة واسعة لا يحدها شيء .. يدور حول نفسه في أنصاف دوائر غير مكتملة، يمنعه شيء من إكمال دوراته رغم محاولاته المستميتة. من بعيد يسمع صوت ارتطام خطوات خشبية على الأرض الفضاء،

يبحث عن مصدر الصوت مناديًا بصوته المحبوس بين جنبيه.. صور غير مكتملة تظهر وتختفي تباعًا في خلفية الساحة يميزها بشيء من الصعوبة، صوت الخطوات يعلو ويعلو، يسمعه يتردد بلا انقطاع داخل تجويفه الخاوي.

صوت أذان الفجر أيقظه من غفوته ... ثوان مرت قبل أن يعمل عقله ويتمكن من إدراك تفاصيل الموقف، لم يكن عجوزه ذو الساق الخشبية هنا. أخذ يدور بعينيه في المساحة التي احتلتها حضرهم أمس، لم يجد له أثرًا، لم يجد أيًا من الأجساد التي يتذكر أنها كانت مُلقاةً بعشوائية على أرض المسجد بجواره قبل قليل، لم يتمكن عقله من استيعاب كل تلك الحقائق المتتالية بشكل سريع، أخذ يدور في أنحاء المسجد المختلفة بحثًا عن أي وجه يتذكر ملامحه من ليلة أمس دون جدوى. أسئلته المتتالية عن مكان العجوز ذي الساق الخشبية لم تجلب له أي جواب، لم ينكر أحدٌ معرفته، كما لم يؤكدها أحد. نظرات التساؤل التي ارتسمت في أعين الناس التي يسألها أخافته ودفعته دفعًا خارج المسجد حتى قبل أن يصلي الفجر. خرج مسرعًا وهو يدور بعينيه في المكان بحثًا عنه هنا أو هناك، يبحث في الوجوة الناعسة عن طيف عجوز ماضيه الذي اختفى فجأةً قبل أن يتمكن من أن يسأله عن سر الحلم الذي رأه في غفوته ... قبل أن يجد عنده الإجابة التي يحتاجها ... قبل أن يعرف منه كيفية إكمال حركته نصف الدائرية.

اختيار



القطار الأخير المتجة إلى حلوان متجه للمحطة بعد قليل

***

أفاقه الصوت من شروده ... نظر في ساعته فقط لكي يقنع نفسه بما سمع. عقارب الساعة تشير إلى الواحدة إلا عشر دقائق. سؤال يتردد داخله ببطء ... كيف مر عليه كل هذا الوقت وهو جالس على نفس الكرسي دون حراك ودون أن ينتبه لمرور الوقت والقطارات من حوله؟!

قام من مكانه، مدّد ذراعيه يمينًا ويسارًا، أثنى ظهره محاولًا التخلص من تيبس عضلات جسده وفقرات عموده الفقري بفعل الجلوس الطويل دون أن يأبه للمتواجدين بجواره. خطوات قليلة للأمام اقترب من حافة الرصيف ليقف مع غيره منتظرًا القطار القادم.

لحظة صمت يتوقف عندها الزمن عن الحركة ... صور متلاحقة لقطارات مرت دون أن يلحقها، وأخرى لم يحاول حتى اللحاق بها.

هناك، هناك، وهناك ... عيناه تجوب المكان دون توقف ... تلـــك، تلك، وأيضًا تلك.

ضوضاء وصول القطار وحركته السريعة أمام عينيه أعادت للزمن الحركة ودفعت الصور بعيدًا.

القطار الأخير المتجة إلى حلوان متواجد على الرصيف

***

عاودته الصور من جديد بعد توقف حركة القطار ... صوت المذيع الداخلي يتكرر محفزًا الركاب للإسراع واللحاق بالقطار الأخير.

أغمض عينيه تعبًا، فترات صمت من جديد دون توقف لحركـــة الزمن، أنفاس عميقة متتالية فقط ليمنع الصورة الأخيرة من الهروب من أمام عينيه.

إدراك أن الفاصل بين الثبات المطلق المستسلم لحركة تيار الزمن المسرع وبين التجديف مبحرًا ضده يكمن في لحظة اكتشاف القدرة على التوحد منعزلًا عن الماضي لإيجاد بداية الطريق ... هي فقط لحظة اختيار.

خطوات سريعة ...

صوت حركة ماكينة التذاكر تزامنَ مع صوت حركـــة إغـــلاق أبواب قطار المترو، صوت خطوات أقدامه المتصاعد في المحطة شـــبه الخاوية يتردد مرتفعًا داخله متداخلًا مع إيقاعه الداخلي لثوانٍ قليلة قبل أن يتلاشى تاركًا ضوضاء رحيل قطاره الأخير.

ليلة في معبد اللا شيء



تعريفٌ أول

اللا شيء هو في حقيقته شيءٌ لم يحظ بعدُ بالاهتمام الكافي ليُمنح نعمة التعريف ويصبح شيئًا بحد ذاته.

***



1

كان الغروب قد لاح في الأفق عندما قابلته، كنت مغادرًا منزلي قاصدًا الخان لأبدأ رحلت مسائي المعتادة. بالقرب من باب الخان كان هناك يرقد أرضًا وحوله بعض الصبية ينهالون على جسده ضربًا بالحجارة وركلًا بأرجلهم، بينما وقف صاحب الخان يشجعهم ويتوعده إن عاد إلى هنا مجددًا .. كم أمقت أفعال الصبية تلك! لماذا لا يحاول آباؤهم إرغامهم على فعل شيء مفيد بدلًا من ترك عنانهم مفلتًا لإيذاء أي شيء وكل شيء؟! ولما كنت أعرف صاحب الخان جيدًا وأعرف شدة جشعه للمال فقد توقعت القصة حتى قبل أن أسمعها منه. اقتربت من الجمع صارخًا في الأطفال ليكفوا وأنا أحاول أن أفض دائرتهم المتحلقة حول الجسد الملقى على الأرض باستسلامِ المستمتع بالضرب والركل

أو اليائسِ معدومِ الحيلة المنتظر انتهاء فورة الحماسة لدى مُعذّبيه ليستجمع ما تبقى من أشلاء نفسه ويرحل بعيدًا إلى أي مكان.

أشرت بيدى لصاحب الخان ففهم أنني أريد أن أوقف تلك المهزلة العبثية، أسكتُّه بكيس من الذهب أخرجته من جيب ردائي وأنا أصيح مخبرًا إياه أنّ ما في الكيس يكفيه ويفيض ليكفهم عنه حتى قبل أن أتمكن من اكتشاف هويته ... أيُّ لذةٍ يجدها المرء في إيذاء من هو أضعف منه؟! أظن أن الخواء الداخلي لبعض البشر ورغبتهم في صنع بعض البطولات الزائفة لهم أمام أنفسهم هي دافعهم لتلك الأشياء .. لا يهم.

دفعتُ الصبية جانبًا وانحنيتُ أساعد الشخص الملقَى على الأرض ليقف على قدميه، وهالني ما رأيت ... عجوز يرتدى بقايا ثياب رثة الهيئة، طويل شعر الرأس والوجه حتى تختفي ملامحه تحت شعر وجهه ودماء الجروح التي تملؤه وإن كانت جروحه الداخلية أعمق بكثير من قدرتنا جميعًا على الإدراك. تحرك معي بصعوبة تصنعها وطأة كدمات الضرب التي تعرض له، وثقلُ هموم يحملها وحده على كتفه لم أدركها ولن أتمكن ... بعد عدة خطوات استعاد بعضًا من قدرته وأزاحني عنه محاولًا الحفاظ على اتزانه متعللًا برائحته العفنة التي لا تليق بملابسي الزاهية.

وقفت أشاهده وأنا أخاف أن يقع مجددًا، ولكنه حافظ على توازن جسده المحطم بمهارة فائقة. أسند نفسه على الجدار بجواره ونظر قبل أن يطلب مني بضعَ نقود لِيَسْكَرَ. كنت أنتوى أن أمنحه نقودًا ليحضر لنفسه بعض الملابس ويُحسِّن هيئته قليلًا، فمنحته أكثر مما طلب ولكنه رفض. أخذ ما يحتاجه ومضى في طريقه .. بضعة خطوات والتفت إلى وهو يصيح بصوت مرتفع:

– ارحل نحوَ الشرق ستجد مبتغاك، هناك ستجد معنى اللا شيء بداخلك، فتجد إجاباتك حاضرة. مكانك ليس هنا وأنت تعلم ذلك فلا تتأخر. ارحل قبل اكتمال البدر لتصل في موعدك المحتوم ... هناك انتظر وستعرف.

ورحل مسرعًا دون حتى أن يكلّف نفسه عناء الرد على أسئلتي المتصاعدة.

***

تعريفٌ ثان:

اللا شيء والشيء وجهانِ لنفس القمر، هما فقط انعكاسات لما يراه المرء بحسب محتوى كأسه، كلٌّ منا يحملهما بداخله. ينكسر الشيء بدون اللا شيء، ولا وجود للا شيء بدون الشيء، هي فقط القدرة على الإدراك ولا شيء آخر.

***



2

لم أكن الشخص الذي اعتاد عليه رفقائي .. كنت أدرك أهم على حق فَمَا حدث خارج الخان الليلة حرك داخلي المياه الراكدة منذ زمن حتى كدت أن أنسى أها ما تزال هناك .. من أنا؟ وماذا أفعل؟ وأسئلة عدة جنبت نفسي شر إيقاظها من سباها العميق بداخل تلافيف عقلي الذي أنبته قديمًا الأسئلةُ، وجاء هذا المجذوب الليلة وحرك مياه بحيرة حياتي الساكنة بضربة حجر. غادرت قبل منتصف الليل بكثير وأنا أغرق في بحر السؤال، قبل أن أصل إلى منزلي كنت قد حسمت قرار الرحيل، لم يعد هناك الكثير من الوقت قبل اكتمال القمر بدرًا، سأرحل من أجل الجواب وليس السؤال .. الشرق سيكون وجهتي حتى أصل إلى الجواب.

قبل الفجر كنت على الطريق، لم أكن أدرك وجهتي ولكنني كنت على يقين أنني سأجدها حينما أصل. مخزون الإيمان الباقي بداخلي سيرشدني أنا التائه في بحر اللا شيء.

ليلة من الترحال أنهكتني تعبًا، كان القمر بدرًا يتوسط السماء مضيئًا كلَّ شيءٍ من حولي بلون فضي، أخذت أبحث عن مكان يصلح لقضاء الليل، لم أجد حولي إلا أطلال معبد من بعيد فأسرعت الخطى تجاهه ... سور شبه محطم تتوسطه بوابة حجرية كبيرة، القمر يملأ أركان المكان كله بالضوء فتحسب نفسك سابحًا في بحر اللون الفضي ولا شيء آخر، منتصف الفراغ تشغله منصة حجرية لا ترتفع كثيرًا عن الأرض ينتصب حولها في الاتجاهات المختلفة أربعة أعمدة حجرية متوسطة الارتفاع تواجه السماء في صلابة الخشوع. انتابتني رعشة حينما وطأت قدمي داخل البوابة فأدركت أنني وصلت إلى نهاية طريقي وبداية رحلتي نحو الإجابات، لكن كيف، ومن الذي سيخبرني؟!

كل ما كان حولي هو الفراغ ولا شيء آخر. أخذت تتردد في أذني آخر كلمات المجذوب ... هناك انتظر وستعرف ... وضعت حاجياتي بجوار المنصة الحجرية وجلست على الأرض ساندًا جسدي منتظرًا.

***

تعريف ثالث:

في حضرة اللا شيء ستجد الشيءَ حاضرًا .. امنح نفسك صفاء سجيتها وستصل إلى مبتغاك من حضرة اللا شيء، وستجد أنك أصبحت متوحدًا في ذاتك معهما ... مع اللا شيء وشيئه.

***



3

حيثما كنت لم يكن هناك مكان للبعد الزمني، كنت أنا فقط. ظهرت أمامي أبعاد المكان الذي كنت فيه وبدأت رحلتي.. داخلي كان هناك صوت يحركني لأفعل. جلست على المنصة الحجرية ثَنَيْتُ ساقيَّ تحتي، كفّاي يرقدان على فخذي وهما ينظران نحو السماء في ابتهال خاشع. لم يكن هناك غيري لكنني لم أكن وحيدًا، أغمضت عيني وتركت روحي تسبح في محيط اللون الفضي بحثًا عن الإجابات، ولكن... أين هي الأسئلة التي امتلأت بها ثنايا عقلي وسيطرت على فراغات روحي قديمًا؟! .. لا شيء يملؤني الآن سوى الفراغ ... كأسي أصبحت جاهزة لرحلة الامتلاء بالسؤال والجواب.

أمامي يجلس ولا أدري من أين أتى، لم يعد هناك مكان للبعد المكاني أيضًا ... أنا وهو فقط. لم ينبس ببنت شفة ومع ذلك كان

صوته يملأ الفراغ الكامن بين جسدينا، لم يتركني لدهشتي من الصوت الخارج مني دون أن أتحدث ... أخبرني أنه انتظرني كثيرًا، ولكن اللقاء أمرٌ حتميٌّ مقدر في الزمان والمكان. أمسكَ بيدى ساحبًا إياي خلفه رغم أنه لم يتحرك .. صفاء روح البدايات لم يفنَ باقتراب موعد النهايات، هي تكمن تحت رماد الحقيقة المطلقة التي تحتاج إلى رغبة في المعرفة لتشتعل كاشفة معها الأسرار، كنت أسمع وكان هو يقول، جسدينا يسبحانِ في بحر الفراغ الملون بالفضي القمري دون أن يبرحا مجلسهما.

دوائر تدور وأدور معها وفيها .. عناصر الكون الأربعة وأسرار البقاء، عنصر الفراغ الخامس وسر الخلود، أربعون حلقة وحلقة درت فيها صعودًا ونزولًا ولم يَدُرْ معي. جسدي ترهقه شدة التعب، وروحي تُحلّق بعيدًا فوق أربعين بُعدًا لترى الكون والأبعاد من منظور مختلف. يداه تجذباني من بعدي وتعيدني إلى الأرض من جديد.

لم أكن أنا الذي عدت، لم يصدق أحد رواية سفري خارج المدينة فقد غادرتهم بالخان قبل منتصف ليلة الأمس فقط. لم أعبأ بالدهشة التي كانت ترتسم على وجوههم ولم يكن يشغلني أمر رحلتي، فقد كانت روحي تدرك يقين السفر في بُعد الفراغ المحيط بالكون. كنت أعلم أن بداخلي الآن كل الأسئلة وكل الإجابات، كنت أعلم ما هو مقدرٌ لي لأكونه من بعد ... الأمر فقط يحتاج إلى الوقت ليتجلى كل

شيء بالاهتمام الكافي ويمنح متعة التعريف بالسؤال وستصبح وقتها للإجابات ضرورة ... تلك الإجابات الكامنة في العناصر الخمسة للكون المختفية تحت رماد حقيقة الوجود المطلقة في معبد اللا شيء الذي أمضيت ليلتي السابقة فيه.



قديسة



رؤوسٌ فقط هي ما تستطيع أن تراه حينما تشرع في صعود الطريق المؤدِّي إلى الدير، طريقٌ جبلي واعر يصعد بشكل عمودي نحو الأعلى. مشقة الصعود والمخاطر الموجودة بالجبل دفعتهم منذ ما يقرب من مئة عام للصعود والاختباء من الاضطهاد وقتها، ومن ثَمّ بناء الدير ملحقًا بالقبور التي تحوي رفاقهم. بالرغم من أن الوقت مبكر جدًّا لم أرى أمامي طوال الطريق سوى رؤوس فوق أجساد رجال ونساء، أجساد منهكة تعبًا، وأخرى منهكة مرضًا، وأخرى سليمة تبحث عن البركات. أنا أيضًا ورغم أنني لم أكن ذا علة إلا أنني كنت أحمل بين جنباتي روحًا سقيمة تحتاج لبركاتها رغم إنكاري ذلك. أنا الذي لم أعرف أبدًا طريق الرب، رغم أن السماء طريقها أقصر بكثير من كل الطرق التي سرت فيها. أقدم على خطوتي تلك اليوم وأنا كلي أمل أن تُشفَى روحي وأجد لديها بداية طريق جديد.

لم يختلف الأمر كثيرًا خارج أسوار الدير التي كانت تُقيم فيه.. كتل من بشر تجلس على الأرض بجوار السور وأمام الباب في انتظار أن تطل عليهم طلتها، أو أي خبر.

خلف أبواب الدير كانت الأمور مختلفة .. الهدوء يسيطر على جنبات الدير حتى تحسب أنه مسكون بفراغ. كل الأمهات تجلس في صوامعها تتضرع ابتهالًا من أجلها، وفي صومعتها كانت ترقد مغمضة العينين، ملامح الإرهاق الشديد تبدو على وجهها، الدماء تنساب من بين شفتيها، أقمشة بيضاء باردة على جبهتها. تجلس بجوارها راهبات على ملامح وجوههن تبدو علامات الجزع الشديد، ثلاثة أيام على تلك الحالة، محاولات إفاقتها تتوالى، جفناها يتحركانِ بسرعة تقارب سرعة الأفكار التي تضرم في رأسها، يتسارع إيقاع أنفاسها تعبًا من شدة ما كانت فيه، وحدها كانت رغم كل من كان يجلس بجوارها ومن يقبع في انتظار طلتها.

***

كانت تُقدِّم خطوة وتأخر الأخرى وهي ترتقي سُلّم العقار الذي تحتل شقته دورها الأخير بالكامل كما أخبرها. تعلم أنها خاطية ولن تسوق لنفسها مبررًا لتقتنع بأنها ضحية، وأنها لم تكن تملك من أمرها شيئًا، وأن الظروف وغيرها من محفوظات الجمل التي ترددها من هنَّ في مثل موقفها. هي لن تقنع نفسها بذلك، هي تفعل ما تفعله الآن

وهي تدرك أنها تخطو خطوة في طريقٍ ربما لم تتمكن من العودة منه أبدًا. تُدرك أنه استعان بكل معارفه ليُعقّد أمور حياتها لترضى وتأتيَ إليه صاغرةً ليُرضي نزوته منها، وتدرك أنها ربما لو أرادت لاختارت طريقًا آخر ولن يستطيع أحد أن يلومها، ولكنها لم تختر غير هذا ليس استهانة منها بالرب وتعاليمه، ولكن أحيانًا يكون سلوك درب المعصية طريقًا لنحرر أنفسنا ونقترب من درب الرب.

فتح باب الشقة حتى قبل أن تطرقه .. وقف أمامها يرتدي رداءً من الحرير أصاب معدتها بالغثيان. أدارت وجهها نحو تفاصيل الشقة فقط لتهرب من مظهره السخيف، شقة يغلب عليها طابع البذخ غير المبرر.

كل شيء كان يثير غثيان معدتها بشدة، عدة أنفاس عميقة لتكبح جماح نفسها. تستدير ببعض الخفة المصطنعة مع صوت إغلاق الباب والتى لم يلحظها لانشغال عينيه بتفرس مفاتن جسدها الذي يشتهيه بشدة. عدة خطوات قطعاها نحو الغرفة الداخلية ولكنها لم تكن هناك، كانت تراقب المشهد من الخارج. صوت (علي الحجار) يتردد على استحياء من الداخل يدعوها لكى تعيش (وبقولك إيه تجيش نعيش.. هوا نبتديه ولا ينتهيش)، ولكن أي حياة يمكن أن تبدأ بهذا الشكل، ابتسامته اللزجة تكمل سخافة المشهد.

داخل الغرفة كان الجو أكثر سخافة كمشهد عبثي من فيلم عربي من إنتاج السبعينات يحاول مخرجه أن يكون جريئًا فيخرج مبتذلًا .. إضاءة حمراء خافتة تزيد من عبثية المشهد، خياله المثار مسبقًا أفقده لباقة البدايات.

بضعة دقائق وكان قد انتهى من خلع ردائها الخارجي دون أن يُشعرها بالعري، فعري الروح أشد وطأة من عري الجسد وثبات يقينها بما تفعل يغطي روحها بإحكام، صوت لهاثه الشَّبِق يصلها من بعيد. هي لم تكن هنا، جسدها لم يكن يشعر بشيء. ضوء خافت يأتي من مصدر لا تستطيع إدراكه، وجه أبيض مضيء مبتسم، رداء حريري أزرق فيروزي، شفتان بضتان تتحركان بصوت يتصاعد في خلفية المشهد مانحًا روحها بُعدًا زمانيًّا ومكانيًّا مختلفين عن كل شيء حتى أنها لم تدرك كيف بدأ وانتهى الأمر معه، كل ما كان يدور في ذاكرتها من تلك اللحظات هو الوجه الأبيض والكلمات التي كانت تتردد في الخلفية.. نبوءتها المباركة التي كانت تحتاج إلى ذاك الاختبار الصعب لتتحرر روحها من أثمال البقاء وتبدأ رحلتها المقدرة.

***

جفناها يتحركان، تفتح عينيها بصعوبة، صوت ضعيف يخرج من بين شفتيها .. تسأل عن زوارها. علامات الراحة ترتسم على وجهها الشاحب بعد أن سمعت عن بقاء المئات منهم طوال الليالي الماضية أمام

باب الدير تتنهد بوَهَنٍ شديد وتطلب من اثنتين من الراهبات أن يسنداها، تقوم من رقدها وهي تتأوه بصوت مسموع تحاول أن تخفيه دون جدوى حتى لا تخلع قلوب الموجودات. تتحرك بصعوبة، تجرُّ قدميها ببطء شديد، الدماء ما زالت تنساب من بين شفتيها، لون الدم يصبغ رداءها الأبيض.

تفتح زميلاتها الباب، تغلق عينيها تجنبًا لأشعة الشمس الشديدة، الدفء يسري في أوصالها فيكسب جسدها بعضًا من القوة التي تحتاجها. الهدوء يرتسم على قسمات وجهها الأبيض الناعم، ابتسامة رقيقة عذبة ترتسم على شفتيها تمسح آثار المرض المتمكن منها حتى لا يشعر أحدٌ بما تعانيه. مستندةً على عصاها تقف في مواجهه الجمع الصاخب وتبدأ في الحديث بقوة أذهلت الجميع.

***

يوم بارد من أيام الشتاء .. لقاء غير مدبر. فوجئت بها أمامي وأنا أجلس في طاولتي في البار أرتشف بهدوءٍ كأسًا من النبيذ الأحمر، طلبتِ الجلوس فأومتُ برأسي موافقًا دون أن أتمكن من إخفاء الدهشة التي انتابتني. تحكي وأسمع، لم أكن أتوقع أننا سنمضي كل هذا الوقت معًا وخاصة بعد لقائنا الأخير، لم أكن أتوقع أن أسمع ما سمعت .. أشياء وأشياء، أخطاء تتوالى، نبوءتها المحتومة وطريق حياتها الجديد، الاختبارات الحياتية وتحرر القلب ليدرك البداية. كانت قد

اختارت طريق الرهبنة وقررت الهجرة إلى دير بعيد، أمور لم أومن بها يومًا، أو ضاع إيماني بها في الطريق. قبل أن ترحل ابتسمت وأخبرتني أنها تعرف أن بداخل قلبي الميت تحت الرماد يكمن نبضًا لا يزال يحمل سر ولادتي الحقيقية. رسمت على رأسي صليبًا وهي تخبرني أنها ستظل دومًا تُصلّي من أجلي. لم أكن قد وصلتُ إلى درجة الثمالة بعد فأنا ما زلت في كأسي الأولى، ولكن كلامها أسكرني. لم أتذكر من مشهد لقائها سوى وجهها الأبيض المضيء المبتسم.

***

ربما كنت الوحيد الذي لم يندهش لقوة حديثها الذي سحر ألباب جميع مَن يقف بجواري. أنا لم أسمع حرفًا مما قالت، وربما لن يصل قلبي شيء مما يمكن أن يقوله يومًا ما رجلُ دينٍ وهو الذي مات من كثرة خطاياي. لم تصدق عيناي أنها هي، تلك التي يأتي إليها الناس مشيًا من كل مكان.

أفقت من شرودي على صوت صيحات استحسان الحضور لكلماتها الأخيرة، فانتبهت لما يدور حولي... امرأة في أواخر أربعينيات عمرها، وجه أبيض مضيء مبتسم، رداء أبيض حريري يعلوه وشاحٌ من الأزرق الفيروزي. روحٌ استطاعت –رغم العفن الذي حاولت أن أجعلها تحياه– أن تحرر نفسها وتصدق نبوءتها المقدرة، وتخطو خطواتها على الطريق.

أبانا الذي في السموات تقدّس اسمك في الأعالي ... يا من تغفر لنا الخطايا .... خلّصني بفضلك من حرقة الذكريات العاصفات بقلبي ... طهّرني أبانا، وهبني إلهي ميلادًا جديدًا أعيش به من غير ذاكرة *

ارتعد جسدي وجال بخاطري أنها تراني. عند هذا الحد غادرتُ وصوت صلاتها وابتهالها يصلني مختلطًا بأصوات الحضور. وصوتٌ يتردد داخلي يبتهل للمرة الأولى متمنيًا الاستجابة لصلوات قديسة.

---

* ترنيمة مسيحية بتصرف.



مات الملك

دقات القلب تتابع ... إيقاع رتيب يماثل إيقاع دقات الساعة التى أنظر فيها كل ثانية ... الساعة الآن الثامنة والنصف ... متأخر عن موعدى ساعة كاملة ... لا بل أكثر ... لقد كنت أذهب دائماً مبكراً أجلس بجواره ... أجلس بجواره أراقب خلجاته ... فكيف أتأخر عن هذا اللقاء ...؟!! لم تكن تلك المرة مثل باقى المرات مباراة شطرنج عادية تنتهى بفوزه – كالعادة – لكنها كانت المباراة الألف... أحسست بشئ غير عادى حين أخبرنى الأسبوع الماضى أن تلك المرة ستكون الألف ... كنت سعيداً لأنه اختصنى وحدى بهذا السر الذى سوف يعلن عنه بعد فوزه فى مباراة اليوم ... حزن شديد على بطلى ...

لقد ارتبط بهذا الشخص "عم سالم" منذ أربعين عاماً لا بل أكثر ... كل أسبوع فى مساء الخميس نلتف جميعاً حول طاولته ... دائماً كنت أجلس بجواره على نفس الطاولة فى نفس المقهى ... يتغير الخصم ولا يتغير المكان والجمهور وطبعاً البطل ... نشاهد ... ترتفع

أنفاسنا مع كل حركة خطيرة ... نفكر فى كافة الاحتمالات والحركات ... قلوبنا جميعاً معلقة بأصابعه ودائماً النهاية واحدة ... فوزه.

لم يكن عم سالم مجرد لاعب شطرنج عادى أشاهده وأستمتع بلعبه أو حتى أتعلم منه ... لا لقد تعدى تلك المرحلة ... لقد كان أبى الذى افتقدته منذ الصغر ... عرفته منذ أيام الثانوية العامة كنت أجلس على تلك المقهى فى أوقات المدرسة مع زملائى وكان هو فى العشرينات من عمره ... نشاهد مبارياته التى يفوز فى بعضها ويهزم فى البعض الآخر ... دائماً كان له حلم واحد أن يصبح ملك الرقعة الذى لا يهزم ... يجلس إلينا بعد كل مباراة يحدثنا ... ولم يكن يتحدث ولو لمرة واحدة عن الشطرنج كان يكتفى فقط بلعبه ... وإنما كان يحدثنا عن ممالك قديمة ... ملوك حقيقيون ... أخبار غريبة لم أكن أعرفها إلا منه ... كان يحكى لنا عن مملكته الخاصة ... أرضه التى تركها من أجل عرش الشطرنج ... حلم ملك عليه عقله ... أجرها ويعيش من الإيجار كل شهر ونسبة الأرباح آخر العام ... لا يعرف شيئاً سوى لعب الشطرنج.

سنوات طويلة أمضاها فى اللعب ... مباريات عديدة لا يعلم عددها أحد حتى قبل أن أعرفه ... منذ عشرين عاماً أخذ على نفسه عهداً أمام مشاهديه بأنه سيتوقف عن اللعب حين يصل إلى ألف فوز

متتالى أو يموت ... ألف فوز متواصل بشرط ألا يلاعب أحداً هزمه مرة أخرى ... يومين فى الأسبوع السابعة والنصف ... حلم غريب ... علق آماله وأحلام حياته بالحصول عليه ... شخص أغرب ... لا أعلم عنه سوى اسمه وأرضه بالشرقية ... طاولته التى أجلس حولها مع الكثيرين ... عرشه الوهمى الذى يحلم بالجلوس عليه يوماً ما.

وصلت أخيراً إلى المقهى ... الجميع يلتف حوله ... مكانى محجوز رفض أن يجلس أحد غيرى عليه ... كان متأكداً أننى سأحضر ... وجوه مألوفة ... تحيات صامتة لم تتجاوز الشفاه ... عيون تتابع المباراة بنهم ... لا يعلم أهميتها ولا حتى خصمه ... شاب صغير أمامه ثلاثة أكواب من القهوة ... ثقة تظهر من صوت أنفاسه ... يعلم جيداً أنه لو فاز اليوم سيقضى على أسطورة عمرها عشرون عاماً بالرغم من أنه لايعلم أنها ستكون المباراة الأخيرة إذا هزم ... حين وصلت لمحت فى عينيه نظرة عتاب على التأخير ... سرعان ما تحولت إلى نظرات عينيه النارية التى إعتدت على رؤيتها دائماً ... لكنها كانت أقل اشتعالاً اليوم ... لم أجد فيها ذاك البريق الذى يدل على شدة الرغبة فى تدمير أى شئ يقابله على الرقعة ...

الموقف طابيتان وفيل ووزير لعم سالم باللون الأسود ... لا يغيره أبداً ... يتشاءم الكثيرون منه ولكنه يحبه ... أخبرنى ذات يوم حين

سألته عن سر اللون الأسود أنه لونه المفضل ... أكثر صدقاً وأدق تعبيراً عن الواقع ... حتى ملابسه يغلب عليها هذا اللون.

خصمه كان يملك طابيتين ووزيرا ... موقف شبه متكافئ ... طابية محصورة فى الجانب بالوزير الأسود والفيل الأسود يهاجم الملك ... ابتسامة تتفتح على الشفاه ... يدافع عن الملك بالطابية ويهاجم الملك الأسود بوزيره الأبيض ... ترتفع الهمهمات ... تنتقل العيون يميناً ويساراً بحثاً عن حل ... يهرب بالملك ... تنهدات ارتياح سرعان ما تخمد حين يخسر الفيل الأسود ... يهاجم الوزير الأسود الملك ... تعود البسمة للوجوه مرة أخرى ... يتقدم بالطابية السوداء لمساعدة الوزير.

يتسارع إيقاع المباراة بشكل خطير ... يقتل الوزير الأبيض والطابية البيضاء ... تتسارع الأنفاس ... يتزايد العرق على جبين فارس اللون الأبيض ... تضيع الثقة من أنفاسه وتزوغ عيناه.

يا لها من ليلة ... المباراة الألف ... سأودع عم سالم إلى الأبد ... من يعلم أين سيذهب ..؟ رفض أن يخبرنى واحترت طوال الأسبوع ... ربما سيعود إلى أرضه ليديرها بنفسه ... كيف ذلك وهو لا يعلم عنها شيئاً منذ أكثر من ثلاثين عاماً ...؟!! ربما سيبقى ليشاهد الآخرين وهم يلعبون ... ولكن كيف يتحول اللاعب إلى مشاهد

بتلك السهولة ...؟!! سأطلب منه أن يظل معنا فليأتى ويحكى لنا حتى ولو لم يلعب

عيوننا جميعاً تركت الرقعة وتجمعت عليه ... الجميع ينظر إلى هذا البطل الخارق الذى لا يتذكر أحد آخر مباراة خسرها ... وحدى أشعر بشئ غريب فيه ... أنفاسه تتسارع ... ألمح فى عينيه دمعات محبوسة ... ربما كان هو أكثر الناس رغبة فى خسارة تلك المباراة ... لم يكن يهمه الفوز قدر رغبته فى لقائنا ... بل والأكثر من ذلك فى لعب الشطرنج ... ستون عاماً من عمره ... ولكنه يرغب فى أن يكون ملكاً متوجاً لا ذكرى ملك ... ملكاً يمارس السلطات الفعلية له فى تلك المملكة الزائفة ...

حركته الأخيرة ... طابيتاه تحصران الملك الأبيض وتبقى حركة بالوزير وتنتهى المباراة ... ويوقع وثيقة تنازله عن العرش ... يرتعش الوزير فى يديه ... الجميع يبارك ...عينى فى عينيه ... أشعر بآلامه ... شريط ذكرياته يمر أمام عينيه ... دمعاته الحبيسة ... أنفاسه المتسارعة ... عيونه الزائغة .. كش ملك .. مات الملك .



فلسفة أموات ..



الأمطار غزيرة .... الخطر يزداد .... أصوات الطبول تملأ الجو الناس يشغلون ساحه المعبد... يحتلون الطرقات المجاورة...قلق مرسوم فى العيون ...

مجلس الكهنة مجتمع ..... النقاش محتدم ..... الخطر يهدد التمثال ولابد من إنزاله ... الحل معروف.... المشكلة فى البحث عن متطوع...

قانون قديم " النار مصير كل من يلمس تمثال الالهة فاتيا "

الخوف من النيران هو المعوق الوحيد ...

قانون قديم " النار مصير كل من يهرب جبناً من مهمة كهنوتية "

الحيرة تملأ المكان ... الجميع يفكر فى حل لذلك المأزق.....

"نختار واحداً بعينه " أحد الكهنة يصيح ... يصيح كبير الكهنة ينظر إليه متثاقلا .... تتلاقى عيناهما .... تلمعان... حديث العيون ...

تساؤل يهرب .... أتقصده هو بعينه ؟! .... ولم لا ... ؟!! ابتسامة خبيثة ..!!!

وفد كهنوتى رفيع المقام يتحرك نحو منزله الريفى المتواضع.... شاب ف العشرين من عمره ... مفتول العضلات ... حلو الحديث ... لا أحد يختلف على حبه .... منح الكثير من حياته للآخرين ... أمامه الآن فرصه ليمنح حياته للجميع ... لا بل للإله .. لماذا هو ... ؟!! سؤال حير الكثير من البسطاء.. !!!

استقبل كبير الكهنة فى حجرته ... الآخرون ينتظرون فى الخارج .. لم يترك له وقتا ليفكر أو يسأله ... أخبره بلهجته الكهنوتية الصارمة عن مهمته رفيعة المستوى التى تم إختياره لها بالإجماع ...

قانونان قديمان " النار مصير كل من يلمس تمثال الإلهة فاتيا " " النار مصير كل من يهرب جبناً من مهمة كهنوتية "

ألقى عليه تناصيل المهمة .... عيناه تلمعان بخبث شديد .... إختارته الإلهة...وأمامه ثلاث ليال قبل التنفيذ.... الخيار أمامه...تركه ليفكر

خرج ليسير فى طرقات المدينة ... ثلاث ليال ليختار ... وما أغربه من إختيار .... عليه أن يختار سببا لموته .. ؟!!! أيموت بطلا تهتف باسمه الحناجر ، تبكيه العيون ... تخلد ذكراه الأذهان ... أم يموت جباناً تلعنه الألسنة لو أتى ذكره أو دار بخلد أحد ما

مشكلته أنه لم يكن يوما جباناً .... دائما حياته لا همه ... يمنح منها لمن يريد ... الموت بطلاً أمنيه سامية طالما سما الهدف الذى مات من أجله ... إنقاذ تمثال الإلهة فاتيا هدف سام ؟! .... لم يقتنع يوما بعباده أهله لتلك الإلهة ... أيام صباه الأولى ... يسمع فى المعبد حيث نشأ حكاية الإلهة فاتيا ... إلهة الخير والنماء .... تلك البشرية التى كانت تعيش منذ الأيام الأولى للحياة على تلك الأرض ... بشر ... يحب ويكرهه ... يخطئ ويصيب ... إذا كانت الإلهة يوما بشراً فلماذا لا يتحول هو نفسه إلى إله .... سؤال حيره طويلا ... ما الفرق ....؟!!!

لابد للآله أن يكون شيئاً أخر .... شيئاً يسمو عن كل شئ ... لا يعرف للخطأ طريقا ...قوة جبارة لاتعرف المستحيل .... تبهرك وتجعلك دائما تشعر بدونيتك .... كيف تكون تلك الفاتيا إلهة وتحتاج الى من ينقذها ...؟!! نكتة سخيفة .

جلس يستريح فى ظل شجرة... إنهيار مفجع ... صرخات مدوية .... قلوب محطمة .... عيون باكية ..... انتبه من رقدته .... كان على يقين أنه لم ينم .... ربما كان أحد أحلام اليقظة التى تنتابه ....!! حلم غريب يستحق التفكير .... كم مر عليه من الوقت ... لا يدرى .. الشمس توارت فى الغرب منذ الكثير من الوقت

جلس يستريح فى ظل شجرة... إنهيـــار مفجـــع ... صـــرخات مدوية .... قلوب محطمـــة .... عيـــون باكيـــة ..... انتبـــه مـــن رقدته .... كان على يقين أنه لم ينم .... ربما كـــان أحـــد أحـــلام اليقظة التى تنتابه ....!! حلم غريب يـــستحق الـــتفكير .... كـــم مر عليه مـــن الوقـــت ... لا يـــدرى ... الـــشمس تـــوارت فى الغرب منذ الكثير من الوقت

الليال الثلاث مرت .... حـــسم أمـــره .... أعـــد عدتـــه ... ذهب إلى المعبد .... وأخبر الكهنة عن اســـتعداده لتنفيـــذ المهمـــة الكهنوتية التى كلفوها به

المطر ينهمر .... أصوات الطبول تملأ المكـــان .... الـــرؤوس مرفوعة تتأمله وهو يصعد جبل فاتيا .... الـــبعض يحـــسده علـــى مهمته .... آخرون يفكرون فى جدوى مـــا يفعلـــه .... الـــبعض الآخر يتمنى فى قراره نفسه فشله .... أفكار متضاربة ...

وحده يرتحل نحـــو الأعلـــى .... يفكـــر فى اتجـــاه أخـــر .... فلسفته الخاصة .... يعلم أنها مخـــاطرة ... يحركـــه يقـــين بوجـــود عقول تفكـــر ... تـــدرك معـــنى الحقيقـــة المختفيـــة خلـــف مـــا نعيـــشه... يعلـــم أن فعلتـــه ســـتحرك البركـــان الخامـــد فى نفوسهم....

عن الكاتب

أحمد مسعد ..

مواليد بورسعيد عام 86

طبيب مقيم تخدير

صدر له:

(فلسفة أموات) مجموعة قصصية عن دار وعد للنشر والتوزيع 2011م

الفهـــــرس

